انهيار إنسانية الإنسان

الدكتور عزت السيد أحمد

THE CRUMBLE OF HUMAN'S HUMANITY

Ideal and Political Study

By Prof. Dr.
Ezzat Assayed Ahmad

دراسات فكرية

2015

العالم العربي
The Arab World
for Publishing

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار إنسانية الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار إنسانية الإنسان

العالم العربي
The Arab World
for Publishing

☆ الكتاب : **انهيار إنسانية الإنسان**
قراءة فكرية سياسية.
☆ الموضوع: **دراسات فكرية.**
☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد.**
☆ عدد الصفحات: ١٣٨ صفحة.
☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.
☆ النَّاشر: **العالم العربي للنشر.**
☆ **عمان.**
☆ الطبعة الأولى: **٢٠١٥م.**
☆ **تاريخ: ٢٠١٥/٩/١ م.**
☆ تصميم الغلاف بريشة بيلسان.
☆ **الحقوق جميعها محفوظة.**
تمنع طباعة هٰذا الكتاب أو نشره، أو فصل منه، من دون موافقة خطيَّة من النَّاشر أو المؤلف. ويجب مراعاة أصول الاقتباس والتوثيق لدى اقتباس أي نصوص أو شواهد من الكتاب.
☆ بريد إلكتروني : **sameah3@gmail.com**

الإهداء

إلى الثورة السورية

التي عمّرت الجميع تماماً

مُقدِّمة الكتاب

انهيار إنسانية الإنسان اصلاح فيه المجاز وفيه الحقيقة، وفي تناقض مع الحقيقة وفيه مطابقة أو موافقة للحقيقة. المسألة مسألة حقيقة، والحقيقة موافقة المعلوم عن المعلوم عنه. هنا الأساس الذي نبني عليه.

المسألة ليست مسألة هجوم علىٰ الإنسان أو الإنسانية، ولا انفعالا منها بل من الإنسان أو طائفة من الناس.

إنَّ القول بانهيار إنسانية الإنسان يعني منطقيًّا أنَّها جيدة وانهارت لسبب أو لآخر، ولهٰذا يعني منطقيًّا أيضاً إمكانية أن تعود إلىٰ السواء والاستواء. ولهٰذا محال في حقيقة الأمر. الإنسان بالعام شيء وبالمطلق شيء، أنا أتحدث عن الإنسان بالعام لا بالمطلق. الإنسان بالعام فاسد أميل إلىٰ الظلم بمطلق مفهوم الظلم.

هٰذا يعني أنَّهُ لا يوجد انهيار لإنسانية الإنسان وإنما هي علىٰ ما هي عليه طبيعتها، فكيف نقول بانهيار إنسانية الإنسان؟

هنا نحن أمام وجهين للمسألة. الوجه الأول هو إعلان انهيار أسطورة الصورة الخاطئة للإنسانية والإنسانية. والوجه الأول هو الاصلاح أو المفهوم الشائع عم الإنسانية: يقولون: إنساني، إنسانية... كناية عن السلوك الجيد، الأخلاقي، النبيل بكل مشتقات هٰذه المسميات وضروبها وتفرعاتها.

إذن لفظ إنسانية مقترن في الذهن العام بالأصالة والنبل. هٰذا الاقتران من أين جاء؟ كيف جاء؟

الحقيقة أنَّهُ جاء بالتجني علىٰ عالم الحيوان. هٰذه الصفة جاءت من المقارنة أو المقايسة مع عالم الحيوان. في كل المجتمعات يشتمون أحدا بقولهم: حيوان. وعندما يصدر سلوك سيء جدًّا عن إنسان ينعتونه بالحيوانية، البهيمية، الهمجية (الهمج هم الحيوانات)... وعندما يصل عدوان الإنسان حدوداً لا تطلق يصفونه بالوحشية نسبة إلىٰ الوحوش.

الحقيقة التي يجب أن يدركها الإنسان أنَّهُ يعتدي علىٰ الحيوان بكل أنواعه عندما يصف سلوكات البشر السيئة أو الدموية بالوحشية أو الحيوانية أو الهمجية. هٰذه ليست ردَّة فعل أبداً، هٰذه حقيقة لم تعد قابلة للشك. لقد صرنا نعرف عالم الحيوان جيداً، لا نعرف كل شيء، ولٰكنَّ ما نعرفه يقول إن عالم الحيوان منظم منطقي لا خلل فيه. بل فيه مدهشات مما ينسب إلىٰ الإنسان من رفق وحنان ورقة وتنظيم.

نحن أمام غيض من فيض. انهيار إنسانية الإنسان لا يتوقف عند هٰذه المشاهد العريضة القليلة التي قدمناها في هٰذا الكتاب. انهيار إنسانية الإنسان يستحق أيضاً وقفة تحليلية من نوع آخر، وقفة تحليلية فلسفية مختلفة.

بقي أن نشير ختاماً إلىٰ أن هٰذا الكتاب ينقسم تاريخياً إلىٰ قسمين: الأول كتب عام ٢٠٠٠م وهو الفصل الأول والثاني، والفصول الأُخْرَىٰ كتبت مع بدايات الثورة السورية، انتظمت تحت فكرة العنوان الذي كنت أريد به استكمال الفصل الثاني.

إذن، انهيار إنسانية الإنسان ليست فكرة نابعة من وحي الثورة السورية التي قلبت كل الموازين وفضح ما لا يمكن فضحه. إطلاقاً، انهيار إنسانية الإمسان حقيقة قائمة قبل ذٰلكَ بكثير. عندما قرأت الكتب التي كتبت تحت عنوان إنسانية الإنسان، والإنساك ذٰلكَ المعلوم، والإنساك ذٰلكَ المجهول... كنت أقف أمام حقيقة مختلفة تماماً، لم تكن الفكرة متحددة تماماً في ذهني في حقيقة الأمر... ولٰكنَّهَا كانت تدور في هٰذا الفلك.

أول خطوة علىٰ هٰذا الطريق كانت ردي علىٰ محمد عابد الجابري في حقوق الإنسان تحت عنوان العدوان أساس لحقوق الإنسان.

ولٰكن قبلها بنحو عشر سنوات كانت نقطة انطلاق من زاوية أُخْرَىٰ في سلسلة مقالات نشرتها في جيدة الحياة اللندنية وغيرها في ذٰلكَ الحين واجتمعت في كتابي انهير أسطورة السلام الذي صدر عام ١٩٩٤م بدمشق. في هٰذا الفكر فكرة أساسية هي أنَّ لا يوجد سلام إلا بالحرب، ولا يوجد سلام إلا بالعدوان علىٰ الآخرين... ومن ثمَّ فإنَّ ما يسمى السلام العالمي وهم لا أساس له من الصحة، وسلام متوازن بَيْنَ طرفين شبه أسطورة لا تتحقق إلا بالاستثناء.

علىٰ أي حال، كنت أنوي استكمال المجتمع والمجتمع المدني في بحث مستقل مطول، ومعه استكمال مشكلة حقوق الإنسان التي يتم تسوقها تسويقاً مثيراً مع ما فيها من تناقضات ناهيكم عن طبيعة التسويق وطبيعة المسوقين التي تفرض

عليك أن تضع أمامهم عشرات علامات الاستفهام. ولٰكنَّ المشروعين كليهما تعطلا بسبب كثرة المشاغل عبر السنوات السابقة.

مع الثورة السورية وما أثارته من حقائق وتداعيات وجدت نفسي أمام مقالات غير قليلة في سياق انهيار إنسانية الإنسان، منها ما نشر في كتبي الأُخْرَىٰ التي أدت إليها المأساة السوريَّة، ومنها ما وجد مكانه في هٰذا الكتاب.

مع الثورة السورية برزت حقيقة انهيار إنسانية الإنسان أكثر مما برزت في أي وقت مضى من تاريخي بل ومن التاريخ البشري كله في حدود علمي وقراءاتي. ولذٰلك كان إهداء هٰذا الكتاب مع سلسلة الكتب الأُخْرَىٰ: إلىٰ الثورة السورية التي عرت الجميع تماماً.

الفصل الأول

المجتمع والمجتمع المدني

مقدمة

المجتمع والمجتمع المدني

في خصائص المجتمع المدني

المجتمع المدني والسلطة

المجتمع المدني والسلطة السياسية

كثيـــراً مـــا تمـــرُّ الكلمـــات والاصـطلاحات بـين طوايـا الأذهـان مـرور سحابة الصيف من دون تثير أي تساؤل عن طبيعتها، أساسها، أبعادها، غاياتها... وهلم جرًّا من هذه التساؤلات التي تتيح لنا معرفة الميدان الذين نتحرك فيه ونتجادل[1].

هذا الضرب من المعرفة واجب لا نافل، لأنَّه من المعيب للمرء أمام ذاته على الأقل أن يكتشف بعد فوات الأوان أنَّه كان يناقش ويجادل في مفاهيم لم يكن يفقه أو يعرف معانيها.

والحـقُّ أنَّـه مـن الصَّـعب أن نتوجـه بـاللوم إلى كـلِّ مـن يقـع في مثـل هـذه الهفـوة، لأنَّ هـذه الكلمـات أو الاصـطلاحات غالبـاً مـا تتمتـع بخصـائص تجعلهـا تنسـاب إلى الأذهـان انسـياب المـاء في الجـدول، فتتعامـل معهـا بالبسـاطة أو بحسـن النيَّـة، ومـن أهـم هـذه الخصـائص أنَّهـا تركيبـات مألوفـة، أو اشـتقاقات لجـذور مألوفـة. وإذا أردنـا نعـدد الأمثلـة وجـدنا أنفسـنا أمـام سلسـلة طويلـة ربَّمـا يصـعب حصـرها إذا نحـن اقتصـرنا علـى الدلالـة اللغويَّـة الفصـيحة وحـدها لمـا يفـترض أن يكـون متفقـاً عليـه مـن اصـطلاحات، فكيـف لـو امتـد بنـا العـدُّ إلى الأخطـاء الشـائعة وغيرهـا ممـا

(١) .كتب هٰذا الفصل في تشرين الثاني عام ٢٠٠٠م، ونشر علىٰ حلقات في جريدة تشرين السورية في الشهر ذاته من عام ٢٠٠٠م.

يمكن أن يندرج في إطارها... ولكن ذلك لا يمنع من ذكر بعض الأمثلة التي تستحق الوقوف عندها وقفات تتفاوت في مداها وأهميتها، مثل: بطبيعته، الجوهر، كافة الأمور وغير الأمور... وغير ذلك كثير مما يطيل بنا السرد.

المجتمع والمجتمع المدني

على الذي يعنينا هو اصطلاح شاع في أجوائنا الفكريَّة والاجتماعيَّة منذ زمن ليس بالبعيد، هذا الاصطلاح هو (المجتمع المدني). فما معنى المجتمع المدني؟ وهل يختلف عن المجتمع بمفهومه اللغوي أو الشائع أو الاصطلاحي؟ ومن ثمَّ بماذا يمتاز المجتمع المدني عن المجتمع حتَّى استحق ما أضيف إليه، أي المدني؟

من النَّاحيتين اللغويَّة والاصطلاحيَّة تطلق، لا يجوز أن تطلق لفظة المجتمع إلا على الجماعة البشرية؛ والبشرية حصراً، شريطة تحقق مجموعة من الشروط والخصائص، في طليعتها الاستقرار ووجود البنى المؤسساتيَّة والوظائفيَّة والفكريَّة. أي لا يجوز إطلاقها أبداً على أي نوع من الطير ولا الحيوان لتعذر تحقق الشروط التي بها تستحق الجماعة البشريَّة أن يطلق عليها لفظ المجتمع.

ولنلاحظ هنا أن لفظ الجماعة إنَّما يطلق على مجموعة الأفراد من البشر التي ينتظمها أمر طارئ، أو حادث عارض لا تتحقق فيه الشروط والخصائص التي تسمح لنا أن نسبغ عليها صفة المجتمع واسمه، ولذلك فإنَّ لفظة الجماعة تجوز على الإنسان والحيوان في آن معا، لأنَّ انتظام البشر الاتفاقي أو العشوائي

على شكل مجموعة، لأيِّ سبب من الأسباب، يشبه من حيث المبدأ انتظام جماعة الحيوان على نحو من الاتفاق أو العشواء أو الغريزة في مكان واحد سيان كان مكان الطعام أو ورد الماء أو البيئة الجغرافيَّة أو المناخيَّة أو غير ذلك. فإن كان لفظ الجماعة جائزاً على المجموعة من البشر والحيوان في آن واحد، فإنَّ لجماعة الطير أو الحيوان، التي تتحقق فيها مجموعة من الشروط والخصائص المقابلة للشروط والخصائص المكونة للمجتمع، أسماء لا تطلق ولا يجوز أن تطلق على الإنسان مثل: القطيع، والسرب.

وطالما أنَّ لفظة المجتمع غير جائزة إلا على الإنسان بما هو إنسان، وبما محقق في اجتماعه مع الآخرين من بني جنسه مجموعة من الشروط والخصائص التي لا يجوز أن يطلق هذا اللفظ عليه، أي اجتماع البشر، من دون تحققها، فلماذا أضيفت لفظة المدني إلى المجتمع؟ وما الشروط والخصائص الجديدة التي انضافت أو أضيفت إلى المجتمع. ولم يعد اللازم تأكيد أن المجتمع للبشر وحدهم. حتَّى استحق أن يضاف إليه لفظ المدني ليغدو: المجتمع المدني؟

من الغني عن التعريف أن اصطلاح (الحالة المدنية للإنسان) قد نشأت مع فلاسفة التنوير في أوربا ولا سيما **روسو وفولتير وديدرو** وكذلك **جون لوك وتوماس هوبز**... وقد كان باعث توليد هذا الاصطلاح هو التَّمييز بين (الحالة الهمجيَّة، الحالة الوحشية) و(الحالة الطَّبيعيَّة للإنسان)، لتغدو الحالة الطَّبيعيَّة هي الحالة المدنيَّة، الحالة التي يجب أن يعود إليها بعدما شوَّهتها مطامع الإنسان وسلوكاته الخاطئة... أي إنَّ الحالة المدنيَّة للإنسان هي حالة الإنسان بما هو

إنسان، الحالة الطبيعية للإنسان. والحالة المدنيَّة هذه هي ما يقصد بالمجتمع المدني بصورة أو بأخرى.

والسؤال الذي يفرض ذاته الآن: إذا كان أولئك الفلاسفة الذين نشأ على أيديهم اصطلاح الحالة المدنيَّة قد تطرفوا باتهام الإنسان بالهمجيَّة والوحشية، فقالوا بالحالة المدنية المساوية للمجتمع المدني، فلماذا نشأ اصطلاح المجتمع المدني في أوربا وأمريكا في العصر الراهن؟ أليس هذا تطرفاً جديداً في اتهام الإنسان بهمجيَّة ووحشية جديدة؟

نحن هنا في حقيقة الأمر أمام مشكلة!!

في بداية الأمر هنا نحن لن نجعل المجتمع العربي، ولا المجتمعات المتخلفة من مدار الحديث لأنَّ لها شأنها، وإنَّما سنقف عند المجتمع الأوربي والأمريكي الذي نشأ هذا الاصطلاح في حضنه مرتين؛ المرة الأولى منذ أكثر من ثلاثة قرون، والثانية الآن.

منذ ثلاثة قرون تحول الأوربيون إلى حالة مدنيَّة/ مجتمع مدني، تجاوز الحالة الوحشية والهمجيَّة، والسياق التاريخي للمجتمع الأوربي منذ ثلاثة قرون سابقة يدل على أنَّه كان في حركة صاعدة على مختلف الأصعدة؛ الحضاريَّة، المدنية، العلميَّة، الفكريَّة... أي إنَّه في أسوأ تقدير قد حافظ على الحالة المدنيَّة، وفي التقدير المنطقي قد ارتقى بالحالة المدنيَّة شيئاً فشيئاً سحابة ثلاثة قرون. فما الذي حدث بعد كلِّ هذا الارتقاء حتى نعود إلى نقطة الصفر ذاتها؛ نقطة الذهاب إلى أنَّ الإنسان يعيش في حالة همجيَّة، وضرورة تحول الإنسان من جديد إلى حالة مدنيَّة. أليس يعني هذا أنَّ الإنسان تحول إلى إنسان خارق (سوبر مان)،

إنسان أكثر من إنسان، أو بتعبير **نيتشه**؛ إنسان مجاوز في إنسانيته، إنسان جدًّا جدًّا جدًّا...؟

إنَّ ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّ المجتمع الأوربي إبان نشأة اصطلاح الحالة المدنية للإنسان كان مشابهاً للمجتمع العربي المعاصر على مختلف الأصعدة والمستويات، وإذ نادى المفكرون بالانتقال إلى الحالة المدنية فإن مقصدهم من ذلك كان تجاوز حالة التخلف التي يعاني منها المجتمع الأوربي، وقد تجاوزها فعلاً. أمَّا عودة نغمة الدعوة إلى المجتمع المدني في الفكرين الأوربي والأمريكي المعاصرين فإنَّما كانت مستندة إلى نظرة مقارنة مع المجتمعات الأخرى، المجتمعات المتخلفة، ليغدو المقصد من ذلك ادعاء أنَّ المجتمع الأمريكي والمجتمع الأوربي يعيشان الحالة الإنسانيَّة للإنسان، فيما المجتمعات الأخرى تعيش حالة اللاإنسانيَّة، الهمجيَّة... وليس من أجل الانتقال الحالة الإنسانيَّة الخارقة، السوبرمانية، المجاوزة للإنسانيَّة بالمعنى النيتشوي. أي إنَّ الفرق بين الدعوتين هو فرق أخلاقي لا وضعي، ففيما كانت النية الحسنة تحكم توجه فلاسفة التنوير، فإنَّ سوء النيَّة هو الذي لفَّ توجهات المفكرين المعاصرين في العالم الغربي.

هنا في حقيقة الأمر تتَّضح الأمور. الإنسان في كلِّ أحواله إنسان، وليس يتغير فيه شيء فنوازعه وميوله وأهواؤه واحدة... ولكنَّ الذي يتغير هو بنية المجتمع والأمة والعقليَّة التي تحكم هذا المجتمع. وهذا التغير تغير نسبي، أي منسوب ومقارن مع المجتمعات الأخرى، فإمَّا أن يكون متخلفاً أو متحضراً أي مدنيًّا بصيغة من الصيغ. ومعروف أن المجتمع المتخلف يعاني من ضروب من المشكلات تجعله مدانياً للحالة الهمجية أو الوحشية، والمجتمع المتحضر يعيش حالة يمكن وصفها بالرقي الحضاري بمختلف أبعاده، هو الذي يجعله مستحقًّا

تسمية المجتمع المدني. دون أن يعني ذلك أن أبناء المجتمع المتحضر هم وحدهم البشر وأبناء المجتمعات المتخلفة خارج دائرة البشر.

إنَّ تخلف المجتمعات وتحضرها سيرورة تاريخيَّة لها قوانينها وضوابطها التي يتعذر التَّحكم بها، فلا نستطيع أن ننقل المجتمع أو الأمة من التخلف إلى التقدم أو التَّحضر بجرة قلم، ولا برغبة فرد، ولا بسيل من الكتابات أو التصريحات... فلكل مجتمع/ أمة سيرورة تاريخيَّة صاعدة نسبياً، نازلة نسبياً، وهذا الصعود والنزول يحتاج إلى قرون كثيرة لا قليلة، وكلاهما ككرة الثلج التي يصعب إيقافها إذا هي بدأت بالتدحرج.. وبهذا المعنى فإن انتقال المجتمع/ الأمة من الحالة الهمجيَّة إلى الحالة المدنية هو انتقال من التخلف إلى التحضر، من التخلف إلى التقدم، وليس انتقالاً من الحالة اللاإنسانيَّة إلى الحالة الإنسانيَّة. ومن ثمَّ فإنَّ تسمية المجتمع المدني لا تعدو كونها تجديداً لفظيًّا لمسمى قديم.

هنا قد تثار بعض الاعتراضات التي تزعم أنَّ المجتمع المدني إنما سمي بالمجتمع المدني لتحقق بعض الخصائص فيه غير الموجودة في المجتمعات الأخرى مثل: الجمعيات الأهليَّة، المؤسساتية، الديمقراطية... ومن ثمَّ فإنَّ كل كلامنا السابق سيغدو بلا معنى!!

إنَّ مناقشة هذا الاعتراض تستوجب مبحثاً خاصًّا، ولكن باختصار شديد أسأل هنا: إذا كانت هذه الخصائص قد تحققت في مجتمع سابق موغل في التاريخ مثل: البابلي أو الفينيقي أو اليوناني أو الإسلامي... فهل يجوز أن نسميه مجتمعاً مدنيًّا أم لا؟؟ إذا كانت الإجابة بنعم فإنَّها تؤكد سابق كلامنا كله من أنَّ هذه الحالة المدنيَّة أو المجتمع المدني إنما هي تسمية جديدة لمسمى قديم، وحالة تاريخيَّة متكررة. وإن كانت الإجابة بـ لا، فبأي حقٍّ تحرم تلك المجتمعات

السابقة من هذا الاسم على الرغم من تحقيقها كل خصائصه وشروطه؟ أليس هذا تناقضاً ودليل تهافت؟!

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح الآن هو: ما جدوى كلِّ هذا الكلام؟

من محض العبث أن يكون الكلام بلا جدوى، أو بلا مقصد وغاية، ولسنا من دعاة العبث في شيء. فإن لم تبد غايتنا واضحة من سابق سياق الكلام، وليس ثمَّة مشكلة كبيرة في ذلك من حيث المبدأ، فإنَّنا نصرح بها هنا:

إن ما نريد قوله هو ضرورة التركيز على المضمون بغض النَّظر عن الشكل الذي قد يختلف ويتباين. إن كان المقصود بالتحول إلى الحالة المدنيَّة للإنسان، ببناء المجتمع المدني، هو الارتقاء بالمجتمع والقضاء على التخلف، وهذا ما أفهمه من قيام المجتمع المدني، فهذا يعني بالضرورة المنطقية أن المطلوب منا جميعاً، على مختلف الأصعدة والمستويات والانتماءات هو محاربة التخلف والارتقاء بالمجتمع في مختلف الميادين.

أمَّا إذا كان المقصود أو المراد غير ذلك فما هو هذا (الغير)؟؟ أنا لست أعرفه.

في خصائص المجتمع المدني

قد يعترض هنا بعض أنصار المجتمع المدني، ورُبَّما خصومه، بأنَّ المجتمع المدني قد سمي بالمجتمع المدني لأنَّه يختلف مفهوميًّا عن المجتمع بما هو مجتمع، بقيامه أصلاً على بعض دعائم محددة وخاصة، أي لانطوائه على خصائص غير موجودة في المجتمعات الأُخْرَى، مثل: الحرية، والحرية السياسية، والديمقراطية، وتداول السلطة، والجمعيات الأهليَّة، والمؤسساتية، وغير ذلك من يجري في هذا

السياق من خصائص ومزايا... ومن ثمَّ فإنَّ كل كلامنا السابق سيغدو بلا معنى!!

إنَّ مناقشة هذا الاعتراض تستوجب مبحثاً خاصًّا، ورجوعاً إلى **هيجل وماركس وجرامشي**، إضافة إلى فلاسفة التنوير، ومن ثمَّ التطورات التي طرأت على المفهوم؛ تجذيراً وتغييراً، ولكن دعونا نتساءل هنا باختصار شديد:

إذا كانت هذه الخصائص قد تحققت في مجتمع سابق موغل في التاريخ مثل: البابلي أو الفينيقي أو اليوناني أو الإسلامي... فهل يجوز أن نسميه مجتمعاً مدنيًّا أم لا؟؟ إذا كانت الإجابة بنعم فإنَّها تؤكد سابق كلامنا كله من أنَّ هذه الحالة المدنيَّة أو المجتمع المدني إنما هي تسمية جديدة لمسمى قديم، وحالة تاريخيَّة متكررة. وإن كانت الإجابة بـ لا، فبأي حقٍّ تحرم تلك المجتمعات السابقة من هذا الاسم على الرُّغم من تحقيقها كل خصائصه وشروطه؟ أليس هذا تناقضاً ودليل تهافت؟!

ولكن، على أي حال، وعلى الرُّغم من ذهابنا إلى عدم وجود فرق بين المجتمع والمجتمع المدني، من حيث المبدأ على أقل تقدير، إلاَّ أنَّنا لا نستطيع أن ننكر أنَّ ثمَّة فوارق بين الاصطلاحين، ونحن لا ننكر ذلك أصلاً، فإذا كنا قد حددنا المجتمع قبل قليل بأنه جماعة البشر التي تتحقق فيها بعض الخصائص والشروط، فإنَّ المجتمع المدني هو المجتمع ذاته مع تحقق بعض الخصائص والشروط الأخرى التي اختلف الباحثون في عددها وحدودها، ولكنهم وإن اختلفوا في كثير من القضايا فقد اتفقوا على مجموعة من الخصائص والشروط التي تسم المجتمع المدني، يمكن إجمالها في النقاط الخمس التالية وهي: **الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمؤسساتية، والجمعيات الأهلية.**

من الواضح تماماً هنا أنَّ هذه الخصائص التي تعدُّ أساساً لا يستغنى عنه للمجتمع المدني، أو حتَّى يكون المجتمع مدنيًّا، كلها خصائص تطرب لها النفوس، وينشدها كلُّ الناس، بمعنى أنَّها كلها مطالب نبيلة؛ لا غبار عليها ولا اختلاف، بل هي ضرورية لتحقق ماهية الإنسان، بما هو مدني بطبعه كما قال **أرسطو**.

ولكن المشكلة تكمن في أمرين، أولها آلية فهم هذه الخصائص وكيفيات تطبيقها والوصول إليها، وثانيهما الخصائص الأخرى التي هي موضع اختلاف بين دعاة المجتمع المدني، والتي ستكون إما نتيجة طبيعة، أو مطلباً غير مُفْصَحٍ عنه، مثل إلغاء أي سلطة؛ السلطة الدينية والاجتماعية والأخلاقية، تحت اسم رُبَّما يجد تقبلاً أو استحساناً من بعض الناس وهو إلغاء السلطة السياسية، لأنَّ الأصل في المطلب أو التسمية هو انتفاء السلطة من دون تحديد طبيعة هذه السلطة. وهذه مشكلة كبيرة. أمَّا المشكلة الثانية، بل الأولى التي أشرنا إليها، وهي مرتبطة بالخصائص غير المعلنة ولا يمكن فصلها عنها، فهي آلية فهم خصائص المجتمع المدني، والغايات المعلقة عليها، وكيفيات تطبيقها، وقبل كل ذلك: كيفية الوصول إليها.

الحقيقة أنَّ هذه الخصائص، أو المزايا، بوصفها شعارات، هي شعارات نبيلة، وتظل نبيلة مهما كانت خصائص حاملها أو المنادي بها، ولكن خصائص من ينادي بها هي التي تجعل هذه الشعارات ذات نتائج إيجابية أو سلبية، تخدم المجتمع وتبنيه، أو تفتت المجتمع وتخلخله، وقد لاحظنا كيف أن بناة المجتمع المدني في أوربا الشرقية هم الذي قادوا هذه المجتمعات إلى الانهيار والتفتت، وانتشار المافيا، والجرائم، وعصابات

السطو، والمخدرات، والدعارة، وتجارة البشر... وغير ذلك كثير. بينما وجدنا أن بناة المجتمع المدني في الولايات المتحدة وبعض دول أوربا قد عملوا على التأسيس لمجتمع أكثر تماسكاً، وتعزيز رفاه مجتمعهم وقوته على حساب المجتمعات الأخرى.

ولأنَّ المشكلة ليست في القيم بحدِّ ذاتها، بما هي خصائص أو حوامل للمجتمع المدني، ولأننا لن نسيء الظنَّ في أحد من دعاة المجتمع المدني، فإننا نجد أنفسنا مدعوين إلى مناقشة الأمر مناقشة موضوعية، عقلانية، على أمل الوصول إلى نتيجة تكون مفتاحاً أو بداية لطريق الصحيح. وهذا مما يستوجب علينا الانطلاق من تعريف محدد أو إجرائي للمجتمع المدني، ونحن هنا في حقيقة الأمر أمام مشكلة جديدة لنَّه لا يوجد تعريف واحد للمجتمع المدني، ولا يوجد اتفاق، ولا شبه إجماع على تعريف لهذا الاصطلاح.

ولكن لأَنَّ النتيجة ستكون هي ذاتها أيًّا كانت نقطة الانطلاق، وأيًّا كان التعريف، كما أثبتنا سابقاً، فلن يكون ثمَّة مشكلة في الانطلاق من أي تعريف، ولعلَّ في تعريف **سيف الدين إسماعيل** ما يجد تقبلاً من غالبية أنصار المجتمع المدني، ولا سيَّما أنَّه ينطوي، على نحو غير مباشر، على كل خصائص المجتمع المدني.

يرى **سيف الدين إسماعيل** أنَّ المجتمع المدني هو «المؤسسات السياسيَّة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال

نسبي عن سلطة الدولة»[٢]. ولكن لماذا الاستقلال، ولماذا نسبية الاستقلال، ولماذا توجد المؤسسات أصلاً؟

يتابع الباحث موضحاً الغرض المعلق على عاتق هذه المؤسسات، بأنَّها «أغراض سياسية كالمشاركة في صنع القرار على المستوى الوطني، ومثال ذلك الأحزاب السياسيَّة. ومنها غايات نقابيَّة مثل كالدفاع عن المصالح الاقتصاديَّة لأعضاء النقابة، والارتفاع بمستوى المهنة والتعبير عن مصالح أعضائها. ومنها أغراض ثقافية كما هو الحال في اتحادات الكتاب والمثقفين والجمعيات الثقافية التي تهدف إلى نشر الوعي وفقاً لاتجاهات أعضاء الجمعية. ومنها أغراض اجتماعية للإسهام في العمل الاجتماعي لتحقيق التنمية. ومن ثمَّ يمكن القول: إنَّ العناصر البارزة لمؤسسات المجتمع المدني هي: الأحزاب السياسيَّة، والنقابات العماليَّة، والاتحادات المهنيَّة، والجمعيات الثقافية والاجتماعيَّة»[٣].

يبدو من هذا التعريف أنَّه بشقه الأول يعبر عن المجتمع المدني تعبيراً منطوياً على العمومية والشمول، أي يصح أن ينطبق على أي مجتمع مدني، بغض النظر عن أي اعتبار، ولكنَّهُ عندما انتقل إلى الشق الثاني، شق الغايات، فقد ضيق فاعلية المفهوم، ودائرته الدلالية حتَّى تنطبق على المجتمع العربي فقط، ورُبَّما مجتمعات العالم الثالث، ولكِنَّه لا ينطبق أبداً على المجتمع المدني الأوربي ولا الأمريكي، فكل ما فعله الباحث هو أنَّه فهم من المجتمع المدني ما يريد له أن يكون أو يحدث في مجتمعه، لا ما يعبر عن حقيقة المجتمع المدني. وهذا هو الخطأ

(٢) . سيف الدين إسماعيل: **المجتمع المدني والدولة في الفكر والممارسة الاجتماعية المعاصرة** . مركز دراسات الوحدة العربي . بيروت . ١٩٩٢م . ص٢٩٢.

(٣) . م. س . ذاته.

الذي وقع فيه غالبية الباحثين في المجتمع المدني؛ أنصاراً وخصوماً، إنَّهم يضعون العربة دائماً أمام الحصان، فهم يقررون نتائجهم أولاً، وبدل أن يبحثوا عن المقدمات المناسبة لها يقررون أنَّ كل المقدمات يجب أن تؤدي إليها.

فإذا ما نظرنا في هذا التعريف، وأعدنا الأسئلة التي ألحقناها به. أمكننا الاقتراب من الحقيقة أكثر، فإذا كان المجتمع المدني هو فقط: المؤسسات السياسيَّة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال نسبي عن سلطة الدولة، لما كان فيها ما هو جديد على المجتمع بما هو مجتمع، لأنَّ هذه المؤسسات موجودة المجتمع بطبيعة الحال؛ لا تفرض عليه فرضاً، ولا يمكن أن تنتزع منه، وإن اختلف التسميات أو تباينت مستويات الأداء الوظيفي.

وهذا التباين في التسميات ومستويات الأداء مرتبط بخصوصيات المجتمعات، ومرتهن أصلاً بمدى تطور المجتمع وتخلفه، ومن ثمَّ فإنَّ الكفاءة الأدائية لهذه المؤسسات تنبع من صلب المجتمع، ولا تضاف إليه إضافة مبتذلة أو مصطنعة أو إكراهية. بمعنى أن درجة تطور المجتمع هي التي تفرض على هذه المؤسسات أن تمارس دورها كما ينبغي أن يكون أولاً، وهي التي تفسح في المجال أمام هذه المؤسسات كي تمارس هذا الدور ثانياً.

وإذا ما نظرنا إلى الغايات أو الأغراض المعلقة على هذه المؤسسات، في إطار هذا التعريف، لوجدنا أنَّها، باستثناء بعضها، تعبر عن حاجات مجتمعنا لا عن حقيقة المجتمع المدني، ليتحول المجتمع المدني بذلك من مفهوم اصطلاحي متحقق، ونتيجة، إلى أداة ومقدمة لتحقيق المجتمع المدني ذاته. أي إنَّ المجتمع المدني هنا هو المقدمة والنتيجة في آن واحد، المجتمع المدني هو الأداة التي ستصنع

المجتمع المدني، وهذا ما يسمى بالدور المنطقي، أي نقطة الانطلاق هي الغاية والغاية هي الدليل على صحة نقطة الانطلاق.

الحقُّ أنَّ المشكلة، كما أوضحنا، محلولة إذا ما أخذنا بمفهومنا عن المجتمع المدني، وكل الاتجاهات تتجه لتصب في معينه، فخصائص المجتمع المدني، المتفق عليها: **الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمؤسساتية، والجمعيات الأهلية،** جزء صميمي من تركيبة المجتمع بما هو مجتمع، وهي متحققة في كلِّ مجتمع، ولكن سويات تحققها وفاعليتها هي التي تختلف، وهذا الاختلاف ليس مسوغاً لنفيها ولا لإثباتها. فمن البداهة بمكان أن الجهل، أو التخلف، أو كليهما، لا يحول دون ممارسة الحرية، ولا يقضي عليها، وإنَّما يحملها دلالات جديدة، ومعان إضافية، تجعل المرء يستشعر أنَّه يعيشها، ولكِنَّه لا يعيشها كما تستحق أن تعاش، لأنَّه يعيش الصورة التي يظنُّ أنَّها الحرية، وعدم ممارسة الحرية يعني عدم ممارسة الديمقراطية أو انتفاءها، وحقوق الإنسان مرتهنة بممارسة الحرية والديمقراطيَّة، وكذلك فاعلية المؤسسات والجمعيات الأهلية.

المجتمع المدني والسلطة

تتصدَّر علاقة المجتمع المدني بالسلطة لائحة الأولويات في تحديد مفهوم المجتمع المدني وأبعاده، وهي في حقيقة الأمر مسألة تستدعي التوقف عندها مليًّا، لأسبابٍ كثيرة، لا لمجرد تبيان أبعاد العلاقة بين السلطة والمجتمع المدني. فإذا غضضنا الطرف عن كون مفهوم المجتمع المدني ما زال حائراً إلى حدٍّ ما حتَّى الآن، فإنَّ مفهوم السلطة ذاته

مفهوم إشكالي من حيث المدى والبعد والميدان... وعلاقة المجتمع والمجتمع المدني بالسلطة أكثر إشكاليَّة.

فما العلاقة بين السلطة والمجتمع المدني؟

لعله من البداهة بمكان القول إننا مدعون أولاً إلى الكشف عن معنى السلطة ومعنى المجتمع المدني كيما يتاح لنا البت في حقيقة العلاقة بينهما، أو على الأقل رسم الملامح الأساسية لهذه العلاقة وآفاقها.

فإذا كان المجتمع المدني، كما بينا(٤)، هو المجتمع ذاته ولكن في تحقيقه النقلة من وضعيَّة التخلف إلى وضعية التمدن بما يحمله التمدن من معاني الارتقاء الحضاري على مختلف لأصعدة والمستويات... فما عسانا نقول في مفهوم السلطة؟

ليس غريباً أن تتوجه الأذهان مباشرة، لدى تلقيها كلمة سلطة، إلى دور تمارسه الدولة أو نظام الحكم في الدولة، على مواطنيها، وهذا الدور جزء أساس من مكونات سيادة الدولة. وربما، بل إن بعضهم يختلط عليه الأمر فيدمج أو يوحد بين هذا الدور وشخوص مستوى محدد من المسؤولين في الدولة، فيحسب أن السلطة هي الوزراء أو أشخاص بعض المسؤولين... وهذا محض خطأ، ومن محض الخطأ أيضاً التوحيد أو إقامة التطابق بين سيادة الدولة والسلطة بما هي دور تمارسه الدولة، لأنَّ السلطة مجرد مكون من مكونات سيادة الدولة لا أكثر.

نحن لن نعترض هنا على هذا الفهم المنقوص لمفهوم السلطة، لأن السلطة المقصودة في تحديد المجتمع المدني هي السلطة بهذا المعنى إلى حدٍّ بعيد. وعدم

(٤) . انظر مقالنا المنشور في جريدة تشرين . عدد يوم السبت الواقع في ٢٠٠٠/١١/٤م تحت عنوان: المجتمع والمجتمع المدني.

الاعتراض هذا على عدم شرطيته مرتهن أولاً بتجاوز الالتباس الذي يقع فيه بعضهم في التوحيد بين السلطة والأشخاص الاعتباريين الذين يمثلون الدولة، ويدفع بعضهم أيضاً إلى التوحيد بين السلطة وسيادة الدولة لأنَّه خطأ محض يقع فيه العوام بوصفه من الأخطاء الشائعة، ومرتبط ثانياً بضرورة فهم هذا الدور المسمى بالسلطة الذي تمارسه الدولة فهما منطقياً أو موضوعياً. فما هو هذا الدور؟ وما السلطة؟

السلطة في اللغة القدرة على الفعل، ولكنها ليست محض القدرة وإلاَّ لما افترقت عن القدرة، وإنما تزيد عليها بالإلزام وإمكانيَّة الإكراه إذا استدعى الأمر ذلك، لأنَّ الإلزام من دون الإكراه يحيل السلطة إلى سلطة أخلاقيَّة أو نفسية وحسب فتفقد بذلك شيئاً من مقوماتها، والإكراه من دون إلزام يحيل السلطة إلى تعسف وجبرية تنتفي معها الحرية التي هي شرط أساسي من شروط تقبل السلطة. وهذا ما يشبه إلى حد كبير تكثيف **آرندت** لمفهوم السلطة بقوله: «إذا كان يجب تعريف السلطة فينبغي أن تقابل، في الوقت نفسه، بالقسر عن طريق القوة، وبالإقناع عن طريق الحجة»(٥).

وبهذا المعنى فإنَّ السلطة حتَّى تستحقَّ أن تسمى سلطة، وأن تمارس فاعليتها تحت اسم سلطة يجب أن ينبني ميدان ممارستها على حرية الاختيار كي تتحقق صفة الإلزام، كما ينبغي أن يمنح صاحبها القدرة على الإكراه من أجل ضمان نفاذ ما هو مكلف بصونه وحمايته. أمَّا التكليف فهو يكافئ من النَّاحية

(٥) . مجموعة من المختصين: **قاموس الفكر السياسي** . ترجمة الدكتور أنطون حمصي . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٤م . ج٢ . ص٣٧٨.

الفكريَّة امتلاك الحقَّ في ممارسة السلطة، أمَّا المصون أو المطلوب حمايته وصونه فهو نسبي مرتبط بميدان ممارسة السلطة وطبيعته.

إن هذا التعريف للسلطة يتسم أكثر ما يتسم بنوع من التجريد والعمومية، أي إنَّه ينطبق على ما يمكن أن يطلق عليه اسم سلطة، مهما كانت الإضافة الملحقة بها، أي مهما كان ميدانها. فإذا ما انتقلنا إلى المعاني الخاصة أو الاصطلاحيَّة للسلطة وجدنا أنَّ السلطة بالمعنى السياسي والحقوقي هي التي تتصدر هذه المعاني، وتحتل المكانة الأكثر أهميَّة بينها، لذلك قلنا لن نعترض على من يتجه بذهنه إلى هذا المعنى من معاني السلطة دون غيرها، ونضيف أيضاً بأنَّه لا يجوز أن نلوم الناس على عدم إدراكهم أو انتباههم إلا إلى هذا المعنى.

السلطة السياسية

السلطة في الاصطلاح السياسي والحقوقي هي «الحقُّ في إنجاز عمل، بما في ذلك سن القوانين وممارسة الحقوق الأخرى المرتبطة بالوظيفة الحكوميَّة»(٦). والسلطة بهذا المعنى ليست بسيطة بحال من الأحوال، فهي تنطبق الدور الذي تمارسه أجهزة الدولة كلها؛ السياسيَّة، والتشريعيَّة، والتربويَّة، والقضائيَّة، والمؤسساتيَّة... وعلى الرغم من الفصل النظري بين ميادين السلطة هذه إلا أنَّه يصعب الفصل بينها من النَّاحية العمليَّة لأنَّها كلُّها تشكل سلطة الدولة.

وإذا ما أردنا أن نفهم أو نحلل هذا التعريف على ضوء المفهوم العام للسلطة فإنَّ النقاط التي لا يجوز تجاوزها هي: ممارس السلطة،

(٦) . مجموعة من المختصين: **قاموس الفكر السياسي**. ج٢ . ص٣٧٧.

والحق، والقدرة، والإلزام، والإكراه، والميدان. وهذا ما يمكن توضيحه باختصار على النَّحو التَّالي:

أولاً: ممارس السلطة: يبدأ المستوى الأول لممارسة السلطة، بالمعنى السياسي، من عند الموظف الذي يستلم أوراق المراجعين والمعاملات، فيقبل ويرفض، أي يمارس سلطة، بما أتاحته له القوانين وخولته به... لنصل إلى أعلى مستويات ممارسة السلطة المتمثل برئيس الدولة أو الملك أو أي تسمية تشير إلى مضمون هذا اللقب.

ثانياً: حق ممارسة السلطة: يستمدُّ ممارسو السلطة حق ممارسة السلطة من مبدأ واحد تختلف آليات تطبيقه من دولة إلى أخرى، هذا المبدأ هو الثقة؛ أوَّلاً الثقة التي يستمدها الحاكم من شعبه بما يمكن أن ينطوي، بصورة أو بأخرى، تحت لواء ما يسمى بالعقد الاجتماعي، ومن أهم ما يقوم عليه هذا العقد هو تكليف الحاكم بتحقيق الأمن والعدالة والتكافؤ بين المواطنين، مع عدم نسيان المصالح العليا للمجتمع والدولة التي تفرضها الوضعية التاريخية للمجتمع والدولة، وتفويض الحاكم بممارسة السلطة لتحقيق هذه الأمور التي ندب من أجلها. وثانياً الثقة التي يسبغها المواطنون على الدستور والقوانين الموضوعة لنظم العلاقات بين المواطنين وتحقيق الأمن والعدالة والتكافؤ... ومن ثمَّ فإنَّ كل من يمارس السلطة في الدولة من أعلى مستويات الممارسة إلى أدناها فإنَّه إنما يمارسها باسم الحاكم والقوانين لا باسمه.

أمَّا آليات اكتساب هذه الثقة بشقيها فهي مسألة خلافيَّة، والحديث فيها يطول، ولكنَّ الأمر الأكيد أنَّه من المتعذَّر الإقرار بأنَّ هناك آليَّة واحدة هي التي

ينبغي أن تنطبق على كل الأمم... دون أن يمنع ذلك إمكانيَّة التَّجريب. ولكن هل التجريب في مثل هذه الأمور سهل؟؟

ثالثاً: أمَّا **القدرة على ممارسة السلطة** فهي مرتبطةٌ أولاً بالثقة التي تخول الحق في الممارسة، ومرتبطة ثانياً بالكفاءة بمختلف معانيها مستوياتها. والكفاءة هنا ذات دلالة مزدوجة، شقها الأول ينصب على ضرورة أن يتمتع من يمارس السلطة بالكفاءة اللازمة لمستوى السلطة الذي يمارسه، وينصب الشق الثاني أيضاً على من يمارس السلطة ولكن بوصفه معبراً عن المهمة الملقاة على عاتق القوانين التي أبرمت بموجب العقد الاجتماعي من أجل تحقيق أغراض منها التكافؤ والعدالة، بما يحقق معادلة أنَّ وضع الأمور في نصابها مرتبط بوضع الأشخاص فيما هم أهل له من مواقع، أو ما يعبر عنه العامة بقولهم: «الرجل المناسب في المكان المناسب».

رابعاً: **أمَّا الإلزام** فعلى ارتباطه بما سبق فإنَّ آلية هذا الارتباط تحتاج إلى بعض التوضيح، فالإلزام بما هو قائم على قبول المواطن التقيد بمقتضيات الدستور والقوانين فإنَّ هذا القبول منبثق أوَّلاً عن الثقة التي أولاها للحاكم والمشرعين الذين سنوا الدستور والقوانين، ومنبثق ثانياً عن رضاهم واقتناعهم بكفاءة ممارسي السلطة والقوانين على تحقيق الأمن والعدالة والتكافؤ فيما بينهم. أي إنَّ الحريَّة هنا متمثلة في مرحلة التأسيس؛ مرحلة إسباغ الثقة على الحاكم، وعلى النواب الذين يقع التشريع على عاتقهم، وبهذا المعنى فإنَّ هذه الحريَّة تتجدد عند كل تفويض للنواب، والنواب هم المطالبون بالتعبير عن متطلبات المواطنين والسعي إلى تحقيقها. أمَّا إذا لم يعبر النواب والمشرعون عما ندبوا من أجله، أو أساؤوا إلى الثقة التي منحوها فإنَّ لكل دولة دستورها وآليتها في التعامل مع هذه المسألة،

بغض النَّظر عن مدى تقبل هذه الآليَّة وإمكانية تعديلها وغير ذلك مما يدخل في باب اختلاف وجهات النَّظر.

خامساً: يستمد **الإكراه** على تنفيذ قرارت السلطة مسوغاته من رضى المواطنين الالتزام بالقوانين ومتطلباتها، وثقتهم فيمن يطبق هذه القوانين ويكرههم على تنفيذ مقتضياتها. على ألا يفهم من ذلك أنَّ الدولة تمارس، أو ستمارس، أو يجب أن تمارس الإكراه خبط عشواء، وعلى كلِّ ما هبَّ ودبَّ... إنَّ هذا الإكراه لا يمارس، ولا يجوز أن يمارس إلا على من فرض على السلطة المختصة أن تكرهه، لأنَّ أصل التعاقد على تخويل ممارسي السلطة الحقَّ في ممارستها هو تحقيق مصلحة المجتمع/ الدولة كلاًّ وأفراداً، وحمايتهم. ومن ثمَّ فإنَّ من لا يخرق قوانين المجتمع/ الدولة لا يمكن، ولا يجوز أن يمارس عليه إكراه لأنَّه في الأصل ملتزم بما تعاقد عليه. وليس من وظيفة السلطة مثلاً أن تكره الناس على عدم السرقة، ولكن من واجبها أن تكره السارق على الرضوخ للقوانين وتنفيذها، وليس من وظيفة السلطة أيضاً أن تكره الناس على تحصيل حقوقهم، فمن حق كل الناس أن تعمل، و أن تترشح لأي انتخاب، ولكن ليس من حقِّ السلطة أن تكره الناس على العمل أو على الترشح للانتخابات... إلا أن من واجب السلطة أن تضمن هذه الحقوق وتحميها.

سادساً: أمَّا **الميدان** فإن السلطة تنقسم تقليديًّا إلى سلطة تشريعيَّة، وسلطة قضائيَّة، وسلطة تنفيذيَّة. ولكنَّ هذا التقسيم لا يعبر إلاَّ عن وجه واحدٍ من أوجه سلطة الدولة هو الذي ينظم العلاقات بين المواطنين في أكثر الأطر عموميَّة، أي بالتجريد من أي إضافة أو خصوصيَّة. ولكن إذا دخلنا إلى صلب

عمل السلطة التشريعيَّة وجدنا أن تشريعاتها تطال مختلف أوجه النشاط في الدولة: السياسة، الاقتصاد، التربية... وغير ذلك، وكل من ذلك يمثل سلطة مقوننة وميداناً للسلطة السياسيَّة.

أنواع أخرى للسلطة

ولكن، هل الدولة وحدها هي التي تمارس السلطة؟

قطعاً لا، لأنَّ المفهوم العام للسلطة يقودنا إلى أنَّ ثمَّة أنواع كثيرة للسلطة ربما يكون للدولة سلطة على بعضها، ولكنها كلها، على أيِّ حال، مستقلة عن السلطة السياسيَّة أو سلطة الدولة. ومن أنواع السلطة على سبيل المثال: الدين، المعتقد، المجتمع، العادات، التقاليد، الوصايا، الأشخاص... وكلها تفرض إيقاعاتها أو قواعدها وقوانينها على الأفراد وفق آليات متباينة تدخل كلها ضمن إطار الإلزام لا الإكراه، أي البعد الأخلاقي للسلطة.

والسؤال الذي يفرض ذاته الآن: هل يمكن للمجتمع المدني أن يعيش دون أي سلطة؟؟

كثيرٌ من المتحدثين في المجتمع المدني، والمنظرين له يصرون على أنَّ أهم خصيصة للمجتمع المدني هو خلوه من أي ضرب من ضروب السلطة، أو إنَّه المجتمع الذي تنتفي منه السلطة انتفاء مطلقاً. فبأي معنى يمكن أن تنتفي السلطة من المجتمع؟ وهل يمكن ذلك فعلاً؟

من المسلم به أنَّ أنواع السلطة غير السياسيَّة غير قابلة للانتفاء لأنَّها جزء صميميٌّ من تركيبة الفرد والمجتمع في آنٍ معاً، لا لأنَّ الفرد قابلٌ للخضوع للسلطة، ولا لأنَّ المجتمع يريد أن يفرض سلطة... بل لأنَّ بنية الإنسان العقليَّة والنفسية قائمة الفعل والانفعال، والتأثير والتَّأثر، والقيادة والانقياد... ولأنَّ بنية

المجتمع قائمة على مجموعة من النظم والعادات والتقاليد والأعراف التي لا يمكن أن تسمى جماعة البشر من دونها مجتمعاً، وهذه النظم تمارس سلطتها على الأفراد بصورة شعوريَّة ولا شعورية. صحيحٌ أنَّه من الممكن تجاوزها أو خرقها، ولكن الذي يمارس هذا التجاوز أو الاختراق غالباً ما يتعرض لاستنكار المجتمع ورفضه بسويات متباينة مكافئة لمدى الخرق أو التجاوز الذي يقوم به، لأنَّ السلطة التي يتمتع بها المجتمع بمختلف نظمه ومؤسساته إنَّما هي سلطة دفاعية ترمي إلى حماية المجتمع والحفاظ عليه، بغضِّ النظر عن نتيجة هذه الحماية التي قد تكون إيجابيَّة وقد تكون إيجابيَّة، ولكنَّها على كلِّ حال إيجابيَّة في نظر المجتمع حتَّى ولو كانت سلبية من وجهة النَّظر المقارنة؛ أي المقارنة مع المجتمع ذاته بعد ردح من الزَّمن، أو مع مجتمع آخر معاصر لهذا المجتمع.

على أنَّ الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّ هذه النظم الاجتماعيَّة السائدة في مرحلة معينة ليست أبديَّة غير قابلة لأيِّ تجاوز أو تعديل أو تغيير، لأنَّ هذه النُّظم تعبر عن المجتمع في مرحلة من مراحله التاريخيَّة، ولكن تغييرها لا يمكن أن يتمَّ بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن يقوم به فرد واحد، ولا يمكن أن تتغير بقرار تفرضه السلطة السياسيَّة... إنَّه يتمُّ بآليَّة تاريخيَّة هي آليَّة انتقال المجتمعات من مرحلة إلى أخرى، أي بما يستغرق عشرات السنين، وهذا ما يعيدنا إلى دائرة الانتقال من المجتمع إلى المجتمع المدني، أو من المجتمع المدني إلى المجتمع المتخلف... إنَّ عملية التغيير هذه هي باختصار ارتقاء الوعي الحضاري للأمة أو انحطاطه وتقهقره المقارن بالضرورة.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق هو : إذا تحققت النُّقلة من المجتمع إلى المجتمع المدني، أو من حالة التخلف إلى حالة التحضر، وتغيرت

بالضرورة النظم الاجتماعيَّة، هل تنتفي سلطة هذه النُّظم الاجتماعيَّة؟ أو بمعنى آخر: هل المجتمع المدني متحرر من سلطة النظم الاجتماعيَّة؛ الدين، العادات، التقاليد...؟؟

إنَّ المنطق والواقع ينفيان ذلك نفياً قاطعاً، ولا أظن أنَّ ثمة دليلاً أو برهاناً أبلغ حجة من الواقع الذي تعيشه المجتمعات المدنيَّة التي نحاول اقتفاء خطاها. ولكن الذي ينبغي ألا يغيب عن الأذهان هنا هو أنَّ آليَّة ممارسة هذه السلطة ستتغير لأنَّ السلطة مطالبة بالدفاع عن قيم ومعايير جديدة تبناها المجتمع، ومن ذلك على سبيل المثال أنَّه يوجد فرق كبيرٌ بين أن يمارس المجتمع سلطته لحماية ذاته من أفكار الآخرين، وبين أن يمارس هذه السلطة لحماية ذاته من الانغلاق!! إنَّ القيمة التي يدافع عنها المجتمع في الحالتين واحدة، وهي حماية المجتمع. بل إنَّ معنى أن يمارس المجتمع سلطته ليحمي ذاته من أفكار الآخرين فقط، أو الانغلاق فقط يختلف من مجتمع إلى مجتمع تبعاً لمستوى الوعي الحضاري الذي يعيشه هذا المجتمع. ولكنه في كل الأحوال سلطة لا يمكن تجاهلها.

إذا كان انتفاء أنواع السلطة هذا متعذر منطقياً وواقعيًّا فما السلطة التي يجب أن تكون منتفية من المجتمع المدني؟ ليس من البداهة أبداً إذا حزرنا أنَّ المقصود هو السلطة السياسيَّة. فهل المقصود بالانتفاء من المجتمع المدني هو السلطة السياسيَّة فعلاً؟ وما مدى إمكانيَّة انتفاء هذه السلطة من المجتمع المدني؟ هذا ما يستحقُّ معالجة مستقلة هي مدار كلامنا في وقت لاحق.

المجتمع المدني والسلطة السياسية

إذا كان انتفاء أنواع السلطة كلها متعذراً منطقياً وواقعيًّا فما السلطة التي يجب أن تكون منتفية من المجتمع المدني؟ ليس من البداهة أبداً إذا حزرنا أنَّ المقصود هو السلطة السياسيَّة. فهل المقصود بالانتفاء من المجتمع المدني هو السلطة السياسيَّة فعلاً؟ وما مدى إمكانيَّة انتفاء هذه السلطة من المجتمع المدني؟

نحن في حقيقة الأمر أمام أكثر من احتمال، أول هذه الاحتمالات أنَّ المقصود بانتفاء السلطة هو انتفاء السلطة بعموم اللفظ وشمول المعنى، أي انتفاء كل سلطة؛ سياسية، دينيَّة، اجتماعيَّة... وهذا ما يبدو واضحاً في كتابات كثير من دعاة المجتمع المدني وانصاره، وعلى الرغم من عدم اتساق هذا المطلب مع أيِّ منطق إلا منطق مغالطة المنطق والعقل، فإنَّ الذي دفع المطالبين به إليه هو أحد أمرين، فإما أنَّه التبس الأمر عليهم بين مفهوم السلطة وبعض الممارسات الخاطئة التي تمارس باسم السلطة أي سلطة؛ سياسية أو دينيَّة أو اجتماعيَّة... أو أنَّهم يريدون فعلاً القضاء على كل سلطة دون أن يفهموا أنَّ معنى هذا الكلام من الناحية المنطقية والواقعية هو القضاء على الإنسان لا على السلطة... وربما كانوا يدركون ذلك!!!

ثاني الاحتمالات هو أنَّ المقصود بالانتفاء إنما هو السلطة السياسيَّة، وما إلحاق أنواع السلطة الأخرى بها إلا ضربٌ من التورية، أو الخداع، أو لغاية في أنفس طارحيها. أمَّا ثالث الاحتمالات فهو متساو مع الثاني من حيث النتيجة لأنَّه، كما يبدو من بعض الكتابات، أنَّ المقصود بانتفاء السلطة هو انتفاء

السلطة السياسيَّة. فهل من الممكن فعلاً أن تنتفي السلطة السياسية؟ وما المقصود أصلاً بانتفاء السلطة السياسية؟

لعله من المستحسن أن نجيب عن السؤال الثاني أولاً، كيما تأخذ الإجابة عن السؤال الأول بعدها من الوضوح.

نحن هنا أيضاً أمام أكثر من احتمال، فإمَّا أن يكون المقصود هو انتفاء سلطة الدولة كلها بمختلف مستوياتها ومعانيها، أو أن يكون المقصود هو انتفاء السلطة السياسيَّة بالمعنى الضيق لمفهوم السلطة السياسيَّة.

فإذا المقصود من انتفاء السلطة السياسيَّة انتفاء سلطة الدولة كلها فإنَّ هذا المقصد لا يختلف أبداً من حيث النتيجة والخطورة عن الدعوة إلى القضاء على كل سلطة، بل إنَّ هذا المطلب أشد خطورة من مطلب القضاء على السلطات غير السياسية، لأنَّه إن كان من الممكن، وهو غير ممكن، حل المجتمع ونظمه ونواظمه لتغدو الدولة، أو الناس بانتفاء الدولة، أسراباً من الأفراد تنتظمها نوازعها الفرديَّة، فإنَّه من غير الممكن لهؤلاء الأفراد أن يستمروا في العيش من غير سلطة قضائيَّة تفصل بينهم وبين نتائج نوازعهم، وسلطة تنفيذيَّة تلزمهم وتكرههم على احترام حقوق الآخرين، أي سلطة الآخرين في حدود حرياتهم.

إنَّ السلطة السياسيَّة للدولة بأشخاصها الاعتباريين، بالمعنيين الاصطلاحي والعام للسلطة السياسيَّة، ليست حقًّا مكتسباً يجوز نزعه أو التخلي عنه، إنَّها جزء صميميٌّ من مفهوم الدولة، وجزء صميميٌّ أيضاً من سيادة الدولة، ومن ثمَّ فإنَّ انتفاء سلطة الدولة السياسيَّة هو هدم لمقوِّم من مقومات الدولة يجعل من المتعذر استحقاقها اسم الدولة مع انتفاء هذا المقوم من

كينونتها. والذي يجب أن يفهم هنا أنَّ السلطة السياسيَّة للدولة بالمعنى العام ليست محصورة بممارسة محض سياسيَّة تقوم بها فئة ما أو حزب ما في سدة الحكم، وإنَّما هي سيادة الدولة على مواطنيها بمختلف مؤسساتها، وسياسات الدولة في مختلف الميادين؛ التربوية، الاجتماعية، الاقتصاديَّة... وهذا ما يتعذر انتفاؤه من دون انتفاء الدولة، وحتى لو افترضنا إمكان انتفائه من دون انتفاء الدولة فإنَّه يعني بالضَّرورة المنطقيَّة انتفاء كل فلسفة وخطة وتخطيط ونهج... يسير المجتمع على هديه... فأيُّ مجتمع هو الذي يسعى إلى ذلك؟؟!!

أمَّا إذا كان المقصود بانتفاء السلطة هو انتفاء السلطة السياسيَّة بالمعنى الضَّيق فإنَّ هذا الاحتمال هو الوحيد الذي يستحق أن يوقف عنده بوصفه إشكاليًّا، أو بوصفه يحمل شيئاً من الحقيقة يزداد أو ينقص، وهو في الوقت ذاته الاحتمال الوحيد الذي يمكن القبول به مطلباً أو أساساً من أسس المجتمع بغض النَّظر عن اختلاف وجهات النظر في ذلك. وهذا ما يستوجب النقاش في حقيقة الأمر.

إنَّنا وقبل أن نناقش هذا المطلب أو المفهوم نجد أنفسنا أمام أكثر من مشكلة. فإذا كان هذا هو وحده المقصود بانتفاء السلطة فلماذا كان كل ما سبق من اللف والدوران؟ ولماذا إلباس الحق بالباطل وإلباس الباطل بالحقِّ وخلط الأمور خلطاً لا يستسيغه عقل، ولا يقره منطق؟؟ ثمَّة كثير مما يسترعي الانتباه والتَّفكير!!

ومن جهة أخرى، إذا كان هذا هو وحده هو المطلوب فإنَّه ليس بالمطلب الجديد، فانَّ الدَّعوة إلى انتفاء السلطة السياسية بالمعنى المقصود هنا لم تغب عن المجتمع منذ نشأة الدولة، أي بما يثبت نظريتنا في المجتمع

والمجتمع المدني، من حيث أنَّ الثاني هو الأول ولكن محققاً نقلة نوعية في الوعي الحضاري للمجتمع. ومن ثمَّ فإنَّ المجتمع المدني ليس حالة طارئة على البشريَّة، ولا هو تحقيق للإنسانيَّة التي لم تكن متحققة للإنسان قبل المجتمع المدني كما يوحي بذلك اللفظ.

نعود هنا إلى سؤالينا الأساسين وهما: وما المقصود بانتفاء السلطة السياسية؟ وهل من الممكن فعلاً أن تنتفي السلطة السياسية؟

أبنا أنَّ القضاء على السلطة التشريعيَّة، أو السلطة التنفيذيَّة، أو سلطة المؤسسات الحكوميَّة... كلاً أو فرادى، وهي كلها جزء أساس من السلطة السياسيَّة، ليس إلا ضرباً من اللغو غير المسؤول، وبقيت لدينا السلطة السياسيَّة بالمعنى الضيق، ويبدو أن انتفاء السلطة السياسية بالمعنى الضيق هي الأمر الذي يتفق عليه الجميع، وربما يستوي في هذا المطلب أنصار المجتمع المدني وأعداؤه وحتى من لا يشكل المجتمع المدني أي حيز من تفكيرهم!!

إلا أنَّ المشكلة التي تعترضنا هنا هي أن مفهوم السلطة السياسيَّة بالمعنى الضيق إنما هو أيضاً مفهوم عائم يتطلب التَّحديد والتَّأطير. فهل المقصود من السلطة السياسيَّة عموم اللفظ وشمول المضمون بالإطلاق؟ أم المقصود سلطة سياسيَّة محددة؟ أم المقصود نظام حكم سياسي محدد بعينه؟ ومن ثمَّ هل المقصود من انتفاء السلطة السياسيَّة هو تحقيق الحرية السياسيَّة؟ أم هو انتفاء أي سلطة سياسيَّة؟ أم هو انتفاء ممارسة أو سلطة سياسيَّة بعينها؟

أسئلة كثيرة، ولكنها ضروريَّة لأنَّها كفيلة برفع سقف آفاق وضوح الموضوع.

أوَّلاً: فإذا كان المقصود بانتفاء السلطة السياسيَّة انتفاء ممارسة أو سلطة سياسيَّة بعينها، فإنَّ هذا لا يعني أبداً انعدام السلطة السياسية أو انتفاء دورها، لأنَّ سلطة سياسية أخرى ستحل مكانها من جهة. ومن جهة ثانية ليس ثمة أبداً ما يضمن أن تكون السلطة الجديدة، أو الممارسة السياسية الجديدة أفضل من السابقة أو أكثر تقبلاً منها في المجتمع. ومن جهة ثالثة فإنَّه لا توجد سلطة سياسية في أي دولة من العالم تستطيع أن تستحوذ على كامل رضى كل الشرائح السياسيَّة أو القوى السياسيَّة الموجودة لأنَّ طبيعة الممارسة السياسية تقتضي بل تفرض ولا تفترض التنوع والاختلاف، والرضى وعدم الرضى... بغض النظر عن شكليَّة الأمور المختلف عليها أو جوهريتها، وبغض النَّظر عن مدى التباين والاختلاف وطبيعته.

ثانياً: أمَّا إذا كان المقصود هو انتفاء أي سلطة سياسيَّة فإنَّ هذا المقصد سيفرض علينا، قبل الإجابة عنه، كثيراً من التساؤلات، ويضعنا أمام كثير من علامات الاستفهام، فما المصلحة المتأتية من انتفاء السلطة السياسية؟ وما المنافع الناتجة عن ذلك؟ ومن هو المستفيد من انتفاء هذه السلطة؟ ومن هو الذي يطالب بانتفاء السلطة؟ وما طبيعة هذا المطلب؛ أهي سياسية أم اقتصادية أم اجتماعيَّة أم أخلاقيَّة أم ماذا...؟ وبأي معنى يمكن أن يكون انتفاء السلطة السياسيَّة؛ أيِّ سلطة أو كل سلطة؟؟

إنَّ الذين يطالبون بانتفاء السلطة السياسية؛ أي سلطة سياسية، هم وحدهم القادرون على الإجابة عن هذه الأسئلة، ومدى تماسك الإجابة واتساقها المنطقي هو الذي يمنحها القدرة على الصمود أمام أيِّ ردٍّ أو نقد.

لن نخوض غمار هذه الأسئلة واحتمالاتها لأنها ستدخلنا فيما نحن في غنى عن الدخول في متاهاته أولاً، ولسنا في حاجة إليه ثانياً، ولن يزيد الأمر وضوحاً أكثر ثالثاً. ولكنَّ هذا، مهما كانت الإجابات عن تلك الأسئلة، لن يحول دون صدق القول إنَّ انتفاء السلطة السياسيَّة؛ أيِّ سلطة سياسية، يكافئ من النَّاحية الدلاليَّة انتفاء أي ممارسة سياسيَّة من المجتمع. فهل يمكن أن تنتفي الممارسة السياسيَّة من المجتمع؛ أي مجتمع؟ لا أظن ذلك ممكناً، بل أعتقد أنَّه إن كان ذلك ممكن عقلاً فإنَّه ممتنع من النَّاحية الواقعية. ولذلك أجدني مضطراً هنا إلى أن أسأل دعاة انتفاء السلطة السياسيَّة: من أين جئتم بهذا المطلب؟ وأي مجتمع مدني في العالم هذا الذي وجدتم فيه انتفاء السلطة السياسيَّة حتى جاز لكم القياس عليه؟

ثالثاً: أمَّا إذا كان المقصود هو تحقق الحرية السياسية بكل ما تنطوي عليه الحرية السياسيَّة من المعاني مثل التعددية السياسيَّة، وصون الحريات السياسية، وتداول السلطة، ولا أظنُّ أنَّه يمكن قبول غير القصد من الدعوة إلى انتفاء السلطة السياسيَّة. فإنَّ في هذا القصد ما يستوجب اللوم أولاً، والاحترام ثانياً، والتوضيح ثالثاً.

أمَّا اللوم فمبعثه وسببه هو العربدة الفكرية التي يمارسها دعاة انتفاء السلطة السياسية أو إعدامها برسم بناء المجتمع المدني، والمجتمع المدني بريء من مثل هذا الدعوة. لأنَّ تحقق المجتمع المدني لا يشترط انتفاء هذه السلطة، ويتوقف على انتفائها، ولا يتطلب ذلك بصيغه المطروحة، ولأنَّ هذه الدعوة بصيغها المطروحة أيضاً لا تحقق الحرية السياسية بما تنطوي عليه من المعاني، وإنما تقوم بتفكيك بنى المجتمع ونظمه وتضعه على شفى هاوية، أو على الأقل تضعه في

مقدمة عربة مندفعة إلى المجهول... ولن أقول إلى إعدام المجتمع ولا الإنسان . وإن أراد ذلك بعضهم . لأنَّ الإنسان والمجتمع أكبر بكثير وأقوى من أن يعدم أحدها أو كليهما برغبة محكمة أو طائشة.

أمَّا الاحترام فإنَّ أيَّ تطلع إنساني بنَّاء يستحق الاحترام مهما كان صاحبه، ومطلب تحقق الحريات السياسيَّة، مجرداً من العربدة الفكريَّة المرافقة، وممارسات الإيهام والتَّضليل...، إنَّما هو مطلب عادل في سياق أي مجتمع، وأي أمَّة. ولعله لم يوجد حتَّى الآن المجتمع الذي لا ينتصب فيه هذا المطلب رايةً منشودة أو محمية، مهما كان المستوى الحضاري الذي يعيشه المجتمع، ومهما كان نوع السلطة السياسيَّة التي تمارس في المجتمع. ومن ثمَّ فإنَّ وجود هذا المطلب لا يمكن أنَّ يعد معيار صحة أو خلل في المجتمع، ولا دليل صواب أو خطأ في السلطة السياسيَّة. ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ كل سلطة سياسية على خطأ، ولا كل سلطة سياسيَّة على صواب. فالسلطة السياسية بحدِّ مفهومها تقوم على التفويض بالسيادة، والتفويض بالسيادة يعني التفويض بامتلاك القوة وحق استخدام القوة لفريق واحد من بين أكثر من فريق يتنازع هذا الحق أو يطمح إليه، بغض النَّظر عن مدى الشرعية التي تسوغ هذا الطموح وطبيعتها.

ولكن حتَّى يصدق المجتمع من ينادي بهذا المطلب ويثق فيه، يجب أن يكون واضحاً في طروحاته غير موارب فيه، ويجب أيضاً أن تكون المقدمات المعلنة أو المطروحة مقدمات سليمة تؤدي إلى نتائج سليمة. فهل كانت المقدمات التي طرحها دعاة انتفاء السلطة من أجل بناء المجتمع المدني مقدمات سليمة؟؟ لا أظنُّ ذلك أبداً، لأنَّ ما أرادوه لا يفترق أبداً عمن أراد قطع الشجرة

ليحصل على الثمرة. ومشكلتنا هنا أنَّ هذه الثمرة لا معنى لها ولا طعم ولا قيمة إذا انتزعت من الشجرة.

أمَّا التَّوضيح فيتمثل في ثلاث نقاط، أولها أنَّ تحقق الحرية السياسية بمختلف معانيها لا يعني أبداً انتفاء السلطة السياسيَّة لا بمعناها الضيق، ولا بمعناها الواسع. وثانيها أنَّ تحقق هذه الحرية السياسية بأي معنى كان لا يكافئ أبداً انتفاء السلطة السياسية لا على المستوى الدلالي ولا على المستوى المنطقي ولا على المستوى الواقعي. وثالثها أنَّ تحقق الحرية السياسيَّة بأي معنى من معانيها لا يمكن أن يبدأ بالقضاء على السلطة السياسيَّة، ولا يجوز أن تكون الدعوة إلى انتفاء السلطة مفتاحاً إلى تحقيق الحرية السياسية.

ربما تتفق قرائح بعضهم فيحسب أننا من أعداء المجتمع المدني، وربما يجنح الانفعال والخيال ببعضهم فيتهمنا بأننا من أعداء الحرية والديمقراطية...!! فهل بدا شيء من ذلك في سياق كلامنا؟! إن الأمر يحتاج إلى التروي وإعادة التفكير قبل إطلاق الأحكام الجزاف.

إننا ندعو إلى بناء المجتمع المدني، والمجتمع المدني بحد ذاته وعي وحضارة، ومن ثمَّ فإن بناء المجتمع المدني ليس إلا تنمية للوعي وخلق لدعائم الحضارة. ولذلك نجدنا نتساءل: أليس الأجدى من كل ذلك اللف والدوران هو أن نفعِّل آليات تطور المجتمع، ونصعِّد وتائر نموه بمختلف المستويات والميادين... فتغدو المطالب المضمرة أو الصريحة هي النَّتائج المنطقية لتطور المجتمع.

* * *

الفصل الثاني

حقوق الإنسان
بَيْنَ الذرائعية والعدوان

مقدمة

العدوان أساساً لحقوق الإنسان

الذرائعية أساساً لحقوق الإنسان

أكثر الناس تشدقاً في الموضوعية أبعدهم عنها، أكثر الناس تشدقاً باحترام المرأة أكثر سعياً لاستغلالها، أكثر الدول تشدقاً بحقول الإنسان أكثرهم انتهاكاً لحقول الإنسان.

انتهاك حقول الإنسان التي يتشدقون بها ليس وقفاً علىٰ أناس من دول أُخْرَىٰ أو أمم أُخْرَىٰ بل علىٰ مواطني الدولة ذاتها. هٰذه حقائق باتت اليوم أوضح من الوضوح وإن لم يرها أصحابها لأنهم معميون بأشياء أُخْرَىٰ.

العدوان أساساً لحقوق الإنسان(٧)

لعلَّه لا يوجد أحدٌ في العالم كلِّه يشكُّ في نزاهة شرعة حقوق الإنسان شكلاً ومضموناً، ولسنا ممن يدعو إلى التّشكيك في هذه النَّزاهة. ولكن ماذا لو نظرنا إلى أسس نشأة هذه الشرعة ووجدنا أنَّها لا تستند أبداً إلى أيِّ نزاهة؟!! قد يعترضُ بعضٌ هنا بأنَّ المهم هو النتيجة، بمعنى أنَّ أسس النَّشأة لا تعنينا كثيراً أمام فوائد ظهور هذه الشرعة وتطبيقاتها في العالم. وهذا اعتراض لا يخلو من الوجاهة أبداً، ولكن ماذا لو أنَّ تطبيقات هذه الشرعة/ القوانين مشوبةً دائما أو غالباً على الأقل بعدم النَّزاهة، أو بالازدواجية، أو بالرؤية الأحادية الجانب لتطبيق هذه القوانين؟!!

(٧) .كتب هٰذا القسم من الفصل في ٨ ذي القعدة ١٤٢٠هـ، الموافق لـ ١٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م، رداً علىٰ مقال نشره محمد عابد الجابري في جريدة الاتحاد الإماراتية في شباط عام ٢٠٠٠م، ونشر في جريدة الاتحاد ذاتها شباط عام ٢٠٠٠م أيضاً.

إنَّ ما يستوجب التَّأكيد هنا هو أنَّنا لسنا ضدَّ هذه الشرعة/ القوانين من حيث المبدأ، ولا من حيث مطلقية التشريع، لأنَّ صورة قوانين حقوق الإنسان عصيَّة على النَّقد بمعنى من المعاني، لأنَّها تمثل الوجه النَّبيل للتعامل بين بني البشر بمطلق البنوة. ولكنَّ المؤسف أنَّ هذه الصورة النَّبيلة، الشفافة، لم تظهر في الأغلب الأعم إلا في تطبيقات مشوهة، وكأنَّ هذه الشرعة لم تشرع إلا لهذه التطبيقات المشوهة (بفتح الواو وبكسرها). ويمكننا أنَّ نتحدَّث بصورة أولية عن ثلاثة تطبيقات من هذا النوع.

يتحدَّث العالم كله اليوم، ومنذ أمد بعيد، عن القوَّة، وحق القوة، وقوة الحق، وعن قدرة القوة على مسخ الحق إلى باطل، وتحويل الباطل إلى حق، وعن إرغام العالم على الاقتناع بأن ما تمارسه القوة ليس عدواناً وإنما هو دفاع عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، والتعامل مع هذا العدوان على هذا الأساس، أي عن العدوان بوصفه حامياً لحقوق الإنسان.

ولا أظنني آتي بجديد إذا قلت إنَّ الممارسات الأمريكية، في جميع أنحاء العالم، من أجل أمريكا ومن أجل إسرائيل، والممارسات الإسرائيلية تحت المظلة الأمريكية... هي بعض قليل من الأدلة على ذلك. وهذا ما يجعل المرء حائراً فعلاً في كيفية البدء بأمثلته ومن أين يبدأ، إن هو أراد أن يعدد الأمثلة، ولذلك حسبنا أن نقف عند حدث جرى مؤخراً. قبل تحرير الجنوب اللبناني. إذ شنَّت إسرائيل غارات جويَّة. استمرت أياماً. مستهدفةً البنى التحتية المدنية اللبنانية؛ الكهرباء والمرافق العامة والمدنيين الأبرياء ... وادَّعت أنَّ ذلك كان ردًّا على عمليات المقاومة الوطنية التي تسميها بالإرهابية وتسمي نفسها، مع كل عدوانيتها، بالملائكية!!!

لن نقف عند مسلسل الغارات والاعتداءات الذي لم ينقطع، ربما يوماً واحداً، منذ عشرات السنين، ولن نتساءل عن الاعتداءات السابقة على المقاومة الوطنية اللبنانية، ولن نقف عند مئات بل آلاف النقاط التي تسترحمنا للوقوف عندها، لأننا نريد فقط أن نقف عند آلية التعامل مع هذا الحدث الأخير . وهي ذاتها فيما قد سلف من هذه الأحداث . الذي خرقت إسرائيل فيه تفاهم نيسان ١٩٩٦م، القاضي بعدم الاعتداء على المدنيين والمنشآت المدنية: المقاومة الوطنية لم تخرق هذا التفاهم، أما إسرائيل فإنها لم تتوقف عن خرقه، وعندما فسرت إسرائيل وأمريكا هذا الاعتداء، ولا سيما بعد إثارة تفاهم نيسان الذي لم تخرقه المقاومة، زعمتا أنَّ المسألة ليست مسألة تفاهم نيسان، وإنَّما هي البنى التحتية التي يمكن أن تستفيد منها المقاومة ... وبهذا المعنى صار من حقِّ إسرائيل أن تصادر الهواء من السماء اللبنانية لأنَّ أفراد المقاومة يتنفسون من هذا الهواء، فهم على كل حال ليسوا مردة من الجن يستغنون عن الماء والهواء والكهرباء... وعندما دعيت لجنة مراقبة تفاهم نيسان للاجتماع حضر الجميع إلا إسرائيل فباء الاجتماع بالإخفاق لهذا التغيب، وعندما حضر الإسرائيليون انسحبوا قبل أن يبدأ الاجتماع، ولكن أمريكا حملت المقاومة اللبنانية مسؤولية هذا الإخفاق، على الرغم من عدم خرقها بنود الاتفاق!!!

وفي هذا الإطار ذاته من العلاقة بين العدوان وحقوق الإنسان، ولكن بصورة مقلوبة، نجد الابتزاز الإسرائيلي لكل ما يمكن ابتزازه في العالم من بشر وشجر وحجر... ومما يقبله العقل ومما لا قبله منطق ولا عقل... بدءاً من تعويضات المحرقة النازية التي تدفعها أوربا كلها لا ألمانيا والنمسا فقط، وصولاً إلى ما تطالب به الآن من تعويضات عن إخراج يهود خيبر من السعودية،

وتعويضات من كلِّ الدول العربية عن الممتلكات التي تركها اليهود لدى هجرتهم إلى إسرائيل، وتعويضات من الفلسطينيين مقابل تنازل إسرائيل عن أراضيهم التي احتلتها!!... كل ذلك باسم حقوق الإنسان، وانتهاك حقوق الإنسان. وعندما يفكر العرب مجرد التَّفكير، باسم الحقِّ ذاته، بطلب تعويضات من إسرائيل أو غيرها عما حقٌّ طبيعي لا مكتسب فإنَّهم يتهمون بالجنون أو (بالوشَّة) في العقل.

هذا جانب من غيضٌ من فيض أمثلة العدوان الذي يصدر بوصفه أساساً لحقوق الإنسان، وهو على الرغم من فجاجته ووضوح المفارقة فيه فإنَّه يهيمن على نمطية تفكير العالم الغربي على عمومه إلى حد كبير.

أمَّا الجانب الثاني فهو الجانب الخفي الذي ينطوي على شيء من المنطقية، وأعني به أنَّه الدول القوية غالباً ما تلجأ إلى العدوان على الآخرين لحماية حقوق أناسها وتأمين متطلباتهم وراحتهم وسلامتهم ... ولو على حساب الآخرين، وهذا ما أثاره منذ نحو عشر سنوات الفيلسوف البولندي **كارل بوبر** . Karl Popper تحت ما يمكن تسميته «الحرب من أجل السلم»، وذلك في لقاء أجرته معه مجلَّة Der Spiegel الأَلمانيَّة[٨]، إذ أيد الولايات المتحدة الأمريكية بالعدوان على أي دولة تهدد، أو يظن أنها تهدد الأمن والسلم وحقوق الإنسان في العالم، ويقصد العالم القوي الذي يجب أن تقوده أمريكا. والأمثلة على الأنموذج أكثر من الكثيرة أيضاً، وليس من جديد إذا قلنا إنَّ النَّصيب الأكبر فيها للولايات المتحدة الأمريكية، وإسرائيل تحت المظلة الأمريكية وخارجة عنها، إلى درجة أنَّ بدء العدِّ سهل ولكن من الصعب التوقف عنه.

8 - Karl Popper: **Kriege führen für den Frrieden**. im Der Spiegel. N.13. 5.4.1992. P.202-211.

ولكن ذلك لا يمنع أبداً من الوقوف عند آخر الأمثلة وهو الضغط الأمريكي السري والعلني لإخلاء سبيل **سعد الدين إبراهيم** المصري/ الأمريكي الجنسيَّة، وتبرئته على الرُّغم من أنف الحكومة المصرية بما يمثل انتهاكاً صريحاً للسيادة المصرية بمختلف معاني السيادة؛ بدءاً من الكرامة وصولاً إلى تطبيق قوانينها على مواطنيها، على الرغم من الأدلة الواضحة والدامغة على عمالته وتجسسه لصالح الولايات المتحدة... بحجة حقوق الإنسان، وأنَّ هذا (الباحث) من أنصار حقوق الإنسان!!

أمَّا الجانب الثالث الذي يدعونا إلى الوقوف عنده في مسألة تأسيس حقوق الإنسان على العدوان، أو تأسيس العدوان على حقوق الإنسان، فإنَّه يستمدُّ مشروعيته الأولية من قول **إرنست رينان**: «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا»، وبغضِّ النَّظر عمَّا أراده **رينان** من إقامة هذه التقاطبية، وعمَّا يريده كثيرون منها... فإنَّ ما لا يمكن إغفاله أو تجاهله هو النزوع الإنساني الذي يتسم به الإنسان الشرقي، وامتلاؤه بحسه الاجتماعي، وطبيعته العاطفية ... وكل ذلك مما لم يحوجه أبداً إلى التفكير بسن قوانين لحقوق الإنسان... خلاف العقلانية المتحجرة للإنسان الغربي، ونفعيته، وذرائعيته... الأمر الذي أشعره بأنَّه كثيراً ما يخرج عن الإنسانية، فكان التفكير بسن قوانين لحقوق الإنسان نتيجة منطقية ضرورية اللزوم عن المقدمات التي هي سلوكه. وتلكم مسألة لا أظنها بحاجة إلى برهان لأنَّ تاريخ الحضارة الغربية حتَّى اللحظة الراهنة أكبر من أي برهان على ذلك... وتحسباً من سوء التقدير الذي سيقع على كلِّ حال فإنِّي

أؤكِّد أن هذا الحكم بشقيه ليس حكماً مطلقاً، أو شاملاً إحصائيًّا، ولكنَّه حكمٌ على العقلية أو البنية الفكرية للمجتمع أو الأمَّة.

وبسبب هذا الوجه من العلاقة بين العدوان وحقوق الإنسان تورط بعضهم، مثل الأستاذ **محمد عابد الجابري**(٩) في القول بأنَّ إرهاصات التفكير فيما سمي فيما بعد حقوق الإنسان، وأساسها، إنَّما كانت بسبب ذهاب بعض فلاسفة التنوير إلى القول بالطبيعة العدوانية للإنسان.

فما مدى مصداقية هذا الحكم؟

يعرف الأستاذ **الجابري** حق المعرفة أنَّه إذا كان قد قال **توماس هوبز** . T. Hobbes بأَنَّ «الإنسان ذئبٌ لأَخيه الإنسان»(١٠)، وتلاه في ذلك **هيبرو جيرمايا** عندما أكد أَنَّ «قلب الإنسان، فوق كلِّ شيءٍ آخر، مخادعٌ»(١١)، وقبلهما أصرَّ **المتنبِّي**؛ الشَّاعر الفيلسوف، على أَنَّ الظُّلم هو أَصل طبيعة الإنسان بقوله(١٢):

والظُّلم من شِيَمِ النُّفوس
فإنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ
فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

---

(٩) . محمد عابد الجابري: **العدوان أساس حقوق الإنسان** . ضمن جريدة الاتحاد . أبو ظبي . العدد تاريخ ٧ شباط ٢٠٠٠م.

10 – Baumgol: **Hobbes'sPolitical Theory**. Cambridge, London. 1988.

(١١) . بات روبرتسون: **النَّظام اليهودي العالمي الجديد** . ضمن مجلة: القاهرة . العدد ١٦١ . ص ١٣٣.

(١٢) . أَبو البقاء العكبري: **شرح ديوان أبي الطَّيب المتنبِّي** . تحقيق السَّقا والأبياري وشلبي . القاهرة . ١٩٧١م . ج٤ . ص١٢٥.

إذا كان هؤلاء قد ذهبوا هذا المذهب، فإنَّ فريقاً كبيراً من الفلاسفة قد ذهب عكس هذا الاتِّجاه مثل **روسُّو** . J.J Rousseau الذي قال بالطبيعة الطيبة للإنسان(١٣)، ومثله كذلك **سبينوزا** (١٤). B.Spinoza و**هولباخ**(١٥). P. Holbach و**جون لوك**(١٦) . J. Locke الذين ذهبوا إلى أَنَّ طبيعة الإنسان خيِّرةٌ بالأَصل والفطرة، وإن اختلفوا في التَّفسير والتَّعليل. والفكر العربي لم يجمع كذلك على أصل واحد للطبيعة البشرية، ولا عجب في عدم الإجماع هذا لأنَّ الإنسان قائم في طبعه على النَّقيضين كليهما، وهذا ما هو مؤَكَّدٌ في القرآن الكريم غير مرة. ولذلك من الصَّعب القول إنَّ القول بالفطرة العدوانية التي قادت إلى العقد الاجتماعي هي التي تمخضت فولدت حقوق الإنسان، دون إنكار أن يكون لرواج هذه الأفكار بعض الدور في ذلك. بل حتَّى وإن كان هذا هو السبب في ولادة شرعة حقوق الإنسان فإنَّ فيها ما يدعونا إلى تأولها بالمعنى الذي سلف تبيانه في الجوانب الثلاثة للعلاقة بين العدوان وحقوق الإنسان.

وأيًّا كان الأمر، فإنَّ النُّبل الذي يضوع من قوانين حقوق الإنسان بما هي محض مبادئ، لا ينفي التَّطبيقات اللاإنسانية لها على أرض الواقع، ويؤكد حقيقة

---

(١٣) . جان جاك روسُّو: **أَصل التَّفاوت بين البشر .** ترجمة؛ بولس غانم . اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع . بيروت . ١٩٨٢م..

14 - Janathan Bennett: **A Study of Spioza's Ethics**. Cambridge, London. 1984.

15 - P.-H.d'Holbach: **The System of Nature**. New York. 1970.

16 - John Locke: **Essay Concerning Human Undersanding** (London. 1690). The partially modernized quotions are from P.H.Nidditch's authoritative edn. Oxford, 1975.

واحدة، راسخة عبر التَّاريخ، وهي أنَّ القوي وحده هو الذي ينعم بهذه الحقوق لأنَّه وحده القادر على فرضها، وانتزاعها، وحمايتها. ومن ثمَّ فإنَّ التَّفكير السليم ينبغي أن ينصبَّ على كيفية امتلاك القوة التي تجعلنا قادرين على انتزاع حقوق إنساننا، ولا عيب في تسلحنا ببعض الذرائعية لأنَّ الذرائعية أساس من أسس نشأة حقوق الإنسان أيضاً.

الذرائعية أساساً لحقوق الإنسان(١٧)

إن كان من الممكن عد العدوان أساساً من أسس حقوق الإنسان فإنَّه أساس الغاية لا أساس التَّأسيس، بمعنى أنَّ الوثيقة التي أعلنت في ١٩٤٨/١٢/١٠م تحت اسم (ميثاق حقوق الإنسان)، والإرهاصات التي سبقتها على طريق تأسيسها، وإن توشَّحت بأثواب النَّزاهة والمقاصد النبيلة، فإنَّها بمعنى من المعاني كانت منطوية على بذور تسويغ ضروب من العدوان هي التي سيمارسها الأقوياء باسم حقوق الإنسان وحماية حقوق الإنسان!!

لا شكَّ في أنَّ كثيراً من الاعتراضات ستبرز أمامنا هنا، ونحن لا ننكر مشروعيَّة أيًّا منها، ولعلَّ ما يقف في طليعتها هو عدم جواز الطَّعن في نبل مقاصد المفكرين الذين مهدوا لولادة هذه الوثيقة، وكلهم فيما يظن الكثيرون فيهم بعيدون عن الشبهات. ونحن أيضاً لا نشكُّ في هؤلاء المفكرين، ولا نضعهم تحت رحمة مبضع الشك، ولكنَّنا نتحدث عن البنية الفكرية لأمة، لحضارة... أو هي **روح الأمَّة** بالمعنى الذي تحدث فيه **هيجل** إلى حد كبير. وروح الحضارة الغربية هذه هي الأرض الأكثر خصوبة لولادة هذه الوثيقة، لأنَّ

(١٧) .كتب هٰذا القسم من الفصل في ١٣ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٠م، استكمالاً للقسم الأول من الفصل، وكلاهما نشر عدة نشرات في الصحافة العربية والسورية ومجموعان في مجلة المعرفة السورية لاحقاً.

الدلالات الفكرية؛ الاجتماعية، والنفسية ، والأخلاقية... لولادة ميثاق حقوق الإنسان تنطبق أكثر ما تنطبق على المجتمع الغربي، وأظنُّ أنَّه من العسير فهمها أو هضمها لو أنَّها صدرت عن العالم الشرقي. لأنَّ العالم الشرقي قائم في بنيته على الحس الاجتماعي المشترك وطغيان العاطفة على العقلية الآلية المتحجرة، خلاف العالم الغربي القائم على الذرائعية والعقلية الحدية في التعامل مع الداخل ومع الخارج، وحقيقة الأمر أنَّ هذه العقلية الذرائعية هي الأساس في ولادة ما سمي بشرعة حقوق الإنسان.

ومن الأدلة على ذلك انَّه لو كانت المقدمات التي جاء بها فلاسفة التنوير من القول بالفطرة العدوانية للإنسان، والقول بنظريات العقد الاجتماعي هي التي أدت إلى ولادة مفهوم حقوق الإنسان لما كان هناك أبداً ما يمنع من ولادة هذه الشرعة في الفكر الشرقي القديم الذي أولد على سبيل المثال شريعة **حمورابي**، والشرائع البوذية والزرادشتية...، أو الفكر اليوناني والروماني الذي تألق بفنون الدساتير والقوانين، أو الفكر العربي الإسلامي الذي أطنب كثيراً في الحديث عن العقد الاجتماعي أو ما يمكن تسميته إرهاصات نظريات العقد الاجتماعي، بدءاً مما قبل الإسلام، مروراً بالإسلام الذي أفاض في تبيان علاقة أفراد المجتمع ببعضهم، وعلاقة البشر ببعضهم، وصولاً إلى أعلام الفكر العربي الإسلامي الذي يضيق المجال عن سردهم، **كالنظام والجاحظ والتوحيدي والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ...** وغيرهم كثير.

وإذا ما اعترض أحد من قراء الدكتور **جورج جبور** الذي أطنب في الحديث عن حقوق الإنسان في الحضارة العربية والعربية الإسلامية بدءاً من

حلف الفضول وصولاً إلى ما أقره الإسلام، والمجتمع العربي الإسلامي من حقوق: الرجل، المرأة، الطفل، العجوز، العمل، الرأي، الأقليات العرقية والدينية، الأمن، التكافل... وغير ذلك، فإنَّنا نقول إنَّ هذه الحقوق برزت في هذا المجتمع، أو الحضارة بوصفها جزءاً من كينونة الحضارة وبنيتها العقلية والسلوكية لا بوصفها مطلباً، وبرزت بوصفها سلوكاً لا بوصفها وثيقة تحكم المجتمع أو الدولة، ولا عقداً بين الدولة أو الحاكم والمجتمع.

ولكن لأنَّ العقلية الذرائعية والأنانية المفرطة في العالم الغربي هي الأساس، لم تولد هذه الفكرة بمعناها المقصود إلا هناك، ويمكن إضافة العدوان إلى هذا الأساس الذرائعي إذا حملناه على معنى حقِّ القوي الذي بدأنا به، فالثورة الفرنسية ـ ١٧٨٩م على سبيل المثال، بكل ما قررته من حقوق وحريات ... لم تعدُ أن تكون «تقريراً لسيادة البرجوازية وتدعيم سلطاتها، دون أن تلقي بالاً إلى حقوق الطبقات الفقيرة التي شاركتها خوض غمار الثورة»[١٨]، والبراءة الكبرى أو العهد الأعظم ـ Magna Carta الذي استحصله الشعب الإنجليزي الثائر على الرغم من ملكه **جون** في عام ١٢١٥م، إنَّما هو خاص بالشعب الإنجليزي وحده أولاً، فهو يقول:

«لا يجوز توقيف أي إنسان حر، ولا سجنه، ولا حرمانه من حرية التنقل، ولا وضعه خارج القانون، ولا نفيه، ولا إرهاقه بأية صورة من الصور. ونحن لن نضع، ولا نمكن من أن يضع أحد يده عليه إلا بحكم قانوني من قبل أنداده، وبحسب قانون البلاد»[١٩].

---

(١٨) ـ د. عز الدين فودة: **حقوق الإنسان في التاريخ وضماناتها الدولية** ـ القاهرة ـ ١٩٦٩م ـ ص١٠.

(١٩) ـ **تطور حقوق الإنسان** ـ مجلة؛ عالم الفكر ـ المجلد الأول ـ العدد ٤ ـ ١٩٧١م ـ ص١٢.

وليس ثمة أي مشكلة أو عيب، من حيث المبدأ، في أن تكون هذه الوثيقة خاصة بالشعب الإنجليزي، ولكن غرضنا أن نبين أن السبب الثاني الحاسم في ولادة أمثال هذه الوثائق هو الاستبداد السياسي ومصادرة الحريات، ولانعدام الثقة في الأخر، انطلاقاً من العقلية الذرائعية والأنانية، اتخذت حقوق الإنسان هذه صيغ الوثائق الموقع عليها من أصحاب العلاقة. ولهذا أيضاً لم نجد مثل هذه الوثائق في العالم الشرقي أو العربي، لأنَّه يقوم في الأصل على مبدأ الثقة والطمأنينة والحس الاجتماعي، ومعروف أنَّ الشرقي أو العربي يربط من لسانه، أي بالثقة. على الرغم من وجود المتناقضات ذاتها، والاستبداد ذاته إلى حد بعيد.

ومما يؤكد أنَّ هذه الذرائعية هي التي تقود الفكر الغربي حتَّى في الشعارات النبيلة التي منها حقوق الإنسان، أنَّ المهاجرين الإنجليز إلى أمريكا لم يفطنوا إلى إعلان هذه الحقوق إلا قبل أسبوعين من استقلال ثلاث عشرة ولاية أمريكية باسم الولايات المتحدة، أي عندما شعورا أنَّهم سيصبحون أقلية بمعنى من المعاني، أو تحت راية لا يعرفون ما ستكون ماهيتها، فأعلنوا قائلين (إعلان فرجينيا): «إنَّ جميع الناس هم في بالأصل متساوون في الحرية والاستقلال، ويملكون حقوقاً طبيعية ملازمة لهم، لا يستطيعون إذا دخلوا في نطاق أي مجتمع، بموجب أي عهد، أن يحرموا أو يجردوا ذريتهم منها، كالتمتع بالحياة والحرية مع وسائل الحصول على العقارات وتملكها والسعي لتأمين السعادة والطمأنينة

واستجلابهما»[٢٠]. داعين بذلك إلى نسيان كل الفظائع التي ارتكبوها ولا سيما بحق السكان الأصليين الذين كانوا يتدربون عليهم في الرماية والصيد.

هذا الأنموذج من التَّعامل الغربي ليس طارئاً فهو جزءٌ صميميٌّ من العقليَّة الغربيَّة تبدو أمثلته ناصعة في كلِّ مراحل التَّاريخ بدءاً من الحضارة اليونانية وصولاً إلى الساعة الراهنة؛ الرَّاهنة بالإطلاق. وعلى الرُّغم من قسوة هذا الحكم وبدوه على أنَّه مبالغة وتطرّف إلا أنَّه حقيقة، وذا هو المفكر الصيني **بينج فو** يقدم لنا خلاصة اختصاصه ومعرفته في الحضارة الغربية، الأمر الذي سلخ له سحابة نصف القرن من عمره، فيقول: تقوم الحضارة الغربية على أربعة عناصر هي[٢١]:

١ ـ الأنانية.

٢ ـ قتل الآخر بغير رحمة.

٣ ـ عدم التَّمتع بالنزاهة.

٤ ـ عدم الخجل من أحد من كل ما تفعل.

وإذا أردنا أن نعدد الأمثلة فإنَّنا قادرون على البدء بالعد ولكننا سنجد صعوبة في التوقف عنه، فعم نتحدث؟ ومن أين نبدأ؟ لن نتحدث عن تحرير الكويت لأنَّنا سنعده تطبيقاً للشرعية الدولية، ولكن هل يمكننا تجاهل العشرة آلاف نوع من الفيروسات والجراثيم ما بين الإشعاعية والكيماوية والبيولوجية... التي نشرتها مخابر المخابرات الأمريكية في العراق لتجعل من الشعب العراقي حقل تجارب لفاعلية هذه الجراثيم والفيروسات؟!!! فأين هي حقوق الإنسان؟ وبأي معنى يفهمها الأمريكيون؟ أليست حقوق الإنسان الغربي وحده، والأمريكي على

(٢٠) ـ ميلتون ميلتزر: **معالم الحرية** ـ ترجمة أحمد عزت طه ـ دمشق ـ ١٩٦١م ـ ص٣٤.

(٢١) ـ عثمان السعدي: **برنامج الاتِّجاه المعاكس** ـ حلقة الثلاثاء ٧ آذار ٢٠٠٠م.

نحو الخصوص؛ حقوقه في العيش والترف والأمان ولو على حساب خلق الله كلهم بدءاً من الأطفال الرضُّع وصولاً إلى العجائز؟!!

والمثال الثاني على تطبيقات حقوق الإنسان هذه بناءً على الأساس الغائي أي العدوان، والأساس التَّأسيسي أي الذرائعي، فهو مثال طازج ولكنَّه ليس الأخير، وليس الأبرز، وهو الكاتب والصحافي الأمريكي **توماس فريدمان** الذي استضافه برنامج حوار العمر يوم الأحد ٢٠٠٠/٩/١٧م، ومما جاء على لسانه أنَّه لم يقبل كل الحجج التي دافع المصريون بها عن عدم ذهاب الرئيس **مبارك** إلى إسرائيل، وكأنَّ الذهاب إلى إسرائيل من مكونات الحياة أو الإنسانية، ومن لا يذهب إلى إسرائيل سيكون نصف إنسان!! فمن حقِّ الإسرائيلي أو الغربي أن يقول لا حيث شاء، وليس ذلك من حقِّ العربي حتَّى ولو اجتمعت له كل أسباب الرفض!! وفي هذا اللقاء أيضاً أبدى استياءه من اعتقال **سعد الدين إبراهيم** الذي ثبتت إدانته بالأدلة الدامغة، وقال إنَّه لا يفهم لماذا اعتقل. كلُّ ذلك لأنَّه يدافع عن حقوق الإنسان على الطريقة الأمريكية، ولأنَّه يحمل الجنسية الأمريكية. والسؤال الذي لم تسأله إياه المذيعة هو: هل فكر في الاحتجاج على اعتقال فلسطيني أو لبناني واحد اقتادته قوات الاحتلال الإسرائيلي لأنَّه يدافع عن أرضه وعرضه!!!

وأيًّا كان أمر تاريخية نشوء حقوق الإنسان فإنَّنا لا نجدُ بدًّا من تسجيل بعض الملاحظات:

أوَّلها: أنَّ التَّفسير الآلي/ السببي المباشر لنتاجات الإنسان الكبرى، ومصائره، هو تفسير يعتوره النقص والقصور، لأنَّ أيَّ فعل إنما هو حصيلة لمركبات متعددة الجهات والإسقاطات، يمكن عدُّ السيرورة التاريخية جملتها الإحداثية، بما انطوت عليه من مسارات فكرية وعلمية واجتماعية ونفسية، وتلاقح الأفكار والمفاهيم ... وغير ذلك الكثير.

وثانيها: أنَّ الوثيقة التي صدرت تحت عنوان «حقوق الإنسان» لا عيب عليها من حيث المبدأ، وهي بمعنى من المعاني مكسب للإنسانية، ولكن على حساب من؟! يمكن القول إنَّها مكسب للإنسانية وكفى، وسنكتفي على الرغم من عدم الكفاية. ولكن ماذا لو كانت هذه الحقوق واجبات؟!! إنَّ المسألة بحاجة إلى مزيد من البحث والنظر.

وثالثها: أنَّ ما يهمنا هو الدرس الذي يمكن نتعلمه من آلية ولادة وثيقة أو وثائق حقوق الإنسان، فمتى نقرر وثائق حقوق إنساننا العربي، وننتقل من ثم إلى إقرار حقوق الشعب والأمة، تماماً مثل حقوق الإنسان في الغرب الذي يعد صورة لحقوق أمم الغرب على حساب الأمم الأخرى.

* * *

الفصل الثالث

الحرية
بَيْنَ عالمي الإنسان والحيوان

وضع القدم على الطريق

لحرية الرأي والموقف حدود

الحرية بين عالمي الحيوان والإنسان

لا بديل عن الاستبداد

مشكلة أكثر البشر

لا أدري إن كان يتوهم الغربيون أنهم يعيشون حريَةً مطلقة، ولٰكنّي متأكدٌ أنَّ كثيراً من الشرقيين يتوهمون أنَّ الشَّعب الغربيَّ يعيش حريَّة مطلقة. وهٰذا محض وهم لا أساس له من الصِّحة.

وضع القدم على الطريق[٢٢]

أول طريق التَّفكير الصَّحيح هو فهم الحقيقة... ما لم نفهم الحقيقة لا يمكن أن نصل إلىٰ الحق. وأيُّ وصول إلىٰ الحق من دون فهم الحقيقة سيكون مصادفة. يعني أن الوصول إلىٰ الحقيقة من طريق الباطل ممكن، ولٰكنَّهُ مصادفة لا تجعل الباطل الذي أوصل إليها حقًّا أو حقيقةً أو صواباً.

المطلوب، وأرجو الانتباه هو فهم الحقيقة لا الاعتراف بها فقط، فالحقيقة لا تنتظر من يعترف بها. إن أنكرت البشريَّة كلُّها حقيقةً فلن يجعل هٰذا الإجماع الإنكاري هٰذه الحقيقةَ باطلةً أو غير موجودةٍ، ستظلُّ حقيقة.

حَتَّىٰ نفكر تفكيراً سليماً يجب أن نبدأ من فهم الحقيقة. فهم الحقيقة هو العتبة الأولى للوقوف علىٰ طريق التفكير الصحيح. ومن هٰذا الباب، كلُّ من لا

(٢٢) . نشر هٰذا المقال في ٢٠١٥/٢/٢٦م في عدد من مواقع النت والتواصل الاجتماعي. وهو الجزء المتمم للقسم الثالث من الفصل الذي يحمل عنوان الفصل ذاته

يفهم الحقيقة فهو كمن يغمس خارج الصحن، كما يقولون بالعامية، وكلُّ من يغمس خارج الصَّحن فإنه يزيد الأمور تعقيداً وضبابيَّة، لأنه يضيف علىٰ الساحة معرفة مشتبهة في أقل تقدير، يراها من يجهلها حقيقة ويبني عليها ما قد يؤدي إلىٰ خراب أو دمار.

وكل من لا يعرف أنَّهُ يغمِّس عليه أن ينضب حَتَّىٰ لا يغمس خارج الصَّحن.

لحرية الرأي والموقف حدود[٢٣]

لم تختلف القيم في الرَّبيع العربي عما سبقه، ولٰكن رُبَّما مع الرَّبيع العربيِّ ظهرت المفارقات بوضحٍ أكبر.

ومما برز بوضحٍ كبيرٍ في الرَّبيع العربيِّ الدَّعوة إلىٰ احترام رأي الآخر. وهٰذه وحدها في ثقافتنا العربيَّة مشكلةٌ عويصةٌ. لا بُدَّ من القول فيها كلمةٌ عابرةٌ على طريق وصولنا إلىٰ ما نريد قوله. وهي أنَّ العالم العربيَّ دون غيره من عوالم البشر شهد ظاهرة مضحكة هي:

أنَّ أكثر دعاة احترام الرأي الآخر هم أكثرهم احتقاراً للرأي الآخر وأشدهم رفضاً له...

وأكثر دعاة الديمقراطيَّة هم أبعدهم عن ممارستها وأشدهم رفضاً للتسليم بنتائج الدِّيمقراطيَّة إلا إذا هم الذين نجحوا.

وأشد دعاة الموضوعيَّة والفهم الصَّحيح للآخر هم أبعد النَّاس عن الموضوعيَّة وأبعدهم عن فهم الآخر علىٰ حقيقته... وأكثرهم تلبيساً له ما لا يلبس، وتقويلاً له ما لا يقول...

(٢٣) . نشر لهذا المقال في ٢٠١٣/١٢/٢٣م في عدد من مواقع النت والتواصل الاجتماعي.

وكان أشدُّ المتفصحنين في القوميَّة هم أعداء القوميَّة، فالقوميون هم الذين كانوا يدعمون الحركات الانفصاليَّة والقوميون هم الذين يعرقلون الجهود الوحدويَّة...

والسِّلسلة في ذَلكَ طويلة...

ولٰكن في تلك السِّلسلة ظهرت تعبيراتٌ ترىٰ في العلاقة مع الكيان الصهيوني حريةً واختياراً ورأياً خاصًّا، وهٰذا من عجائب المنطق الأعوج لأنَّهُ المنطق الأعوج لا يقبل بذَلكَ.

هنا نقول ما قاله المنطق، وكرَّره الكثيرون: الخيانة ليست وجهة نظر. نعم الخيانة ليست وجهة نظر ولا حريَّةً فرديةً ولا جمعيةً... الخيانة خيانة ولا يجوز تمريرها تحت أيِّ بندٍ أو تخريجةٍ.

في الرَّبيع العربي عادت النَّغمة ذاتها إلىٰ الظهور في السِّياق الجديد. عاد الفريق القديم المذكور نفسه إلىٰ إنشاء مقولاتٍ جديدةٍ في الظَّاهر، قديمةٍ في المضمون، تدور في فلك فكرةٍ واحدةٍ أساسيَّةٍ هي حريَّة الرَّأي والتَّعبير.

حريَّة الرَّأي والتَّعبير لا اعتراض عليها، ولٰكن عندما تكون وقفة ضدَّ الحقَّ فليست حريَّة رأي ولا حريَّة تعبيرٍ، إنَّها عدوان علىٰ الحقِّ يجب القصاص منه.

إنَّ من يقف مع القاتل تحت عنوان حرية الرأي والموقف والتعبير هو قاتل مثل القاتل تماماً. من الممكن اختلاف الرأي في الوصف بَيْنَ أن تقول إنَّهُ شريكٌ في القتل أو قاتل. ولٰكن من غير الممكن قبول أنَّ الوقوف مع القاتل المجرم ينطوي تحت باب حرية الرأي والتعبير.

حريــة الوقــوف مــع الســلطان أو ضــده تكــون في الانتخابــات، في السِّياســة الــتي يمارســها، في القــرارات الــتي يتَّخــذها... ولٰكــن عنــدما يقتــل

الحاكم شعبه فلا مجال لقبول حرية الوقوف مع الحاكم، ولا مجال للاعتراف بهٰذا الحق. هٰذا ليس موقفاً ولا حرية إنَّهُ اشتراكٌ في القتل ودعمٌ للقتل، وتأييدٌ للقتل... اختر ما شئت من ذٰلكَ.

إنَّ الذين وقفوا مع القذافي، مع حسني مبارك، مع علي بُدَّ الله صالح، مع بشار الأسد، مع السيسي، مع المالكي، مع حسن نصر الله... لا يجوز بحالٍ من الأحوال القول إنَّهُم يعبِّرون عن مواقفهم ولهم الحرية في ذٰلكَ، أيُّ حرِّيَّةٍ لهٰذه التي عليَّ أن أقبلها وهي تعني محاربة الشَّعب وقتله؟!

ومن ذٰلكَ نقول إنَّ موقف **فيروز وزياد الرحباني** مع القتلة ليس حريَّة، هو شراكة في القتل، تأييد للقتل... إذا كانت تجهل، هي أو الواقفين مع القتلة، ما يحدث فهذا ذنبهم وليس ذنب الأبرياء الذين يقتلهم السَّلاطين.

لفيروز وأيِّ مثقَّفٍ أو غير مثقَّفٍ أن يقف الموقف الذي شاء متى شاء وأينما شاء... ولٰكن كيف يمكن قبول أن تأييد القاتل ودعمه يندرج تحت باب حرية الرَّأي والموقف والتَّعبير؟؟!!

إنَّها معادلةٌ لا يمكن أن تتسق بحالٍ من الأحوال.

الحرية بين عالمي الحيوان والإنسان[٢٤]

عالم الحرية عالم معقد أكثر مما نتخيل وربَّما سهل أسهل مما نتخيل. وربَّما لهٰذا السبب لم تستطع الحرية بعد أن تجد توافقاً بَيْنَ البشر علىٰ هويتها وطبيعتها. لا يمكن لأحد الادعاء بأنَّ هناك أي توافق علىٰ مفهوم الحريَّة.

أحياناً كثيرةً يدفعني الفضول للمقارنة بَيْنَ الحريَّة في عالم الحيوان والحرية في عالم الإنسان. ودائماً أجد الحرية في عالم الحيوان مضبوطةً ومنظمة أكثر من

(٢٤) . نشر لهٰذا المقال في ٢٠١٥/٢/٢٦م في عدد من مواقع النت والتواصل الاجتماعي.

عالم الإنسان حَتَّىٰ أجدني مندفعاً للقول من دون تردُّدٍ: يستحق الحيوان الحرية، يستحق الحيوان الحرية، يستحق الحيوان الحرية.

طبعاً، من البداهة بمكان أن يوجد علىٰ الفور من يعترض بالقول: أنت تقول حرية مضبوطة، حريَّة منظمة، فكيف يمكن أن تكون حريَّة ومضبوطة، حريَّة ومنظَّمة؟ أليس هٰذا انتهاكاً لمفهوم الحريَّة؟

هنا هي المشكلة الحقيقة في فهم الحريَّة. هل الحريَّة مطلقة، أم الحرية مقيَّدة؟

إذا كانت مقيدة فكيف تكون حريَّة؟

وإذا كانت مطلقة فما مدى مطلقيتها؟

إذا قبلت بالمطلقية من دون حد أو مدى فأنت تتحرك في الفراغ منعدم الجاذبية، وإذا قلت بمدى للمطلقية عدت للقيد!!

دعكم من هٰذا الكلام بهٰذه الطَّريقة إنه سفسطة، بل سفسطة عقيمة، لا توصل إلىٰ نتيجة ولن تؤدي إلاَّ إلىٰ إضاعة الوقت في ترف النِّقاش والسِّجال. نحن نريد أن نصل إلىٰ نتيجة. من يعترض علىٰ أنَّ الحريَّة يجب أن تكون مقيَّدةً فهو غير جدير في الكلام في الحرية. لا توجد حريَّةٌ مطلقةٌ لا نظريًّا ولا عمليًّا. بل لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعيش حريَّةً مطلقة. كلمة حرية مطلقة كلمة يجب أن يدرك من يستخدمها معناها قبل أن يستخدمها. ومن يتكلم بكلام أو عبارات لا يدرك معنى فكلامه غير مسؤول، ولا يجوز أن يعتد بكلامه أبداً.

لا أدري إن كان يتوهم الغربيون أنهم يعيشون حريَةً مطلقة، ولٰكنِّي متأكدٌ أنَّ كثيراً من الشرقيين يتوهمون أنَّ الشَّعب الغربيَّ يعيش حريَّة مطلقة. وهٰذا محض وهم لا أساس له من الصِّحة. الغربي يعيش حرية الحركة والعمل والانتخاب

وأشياء أُخْرَىٰ غير قليلة، ولٰكنَّهُ محدود في كل شيء بقانون يقول له قف، هٰذا ليس من حقك. أيسرها أنَّهُ في حين أنَّهُ يحق له أن ينتحب من يشاء عندما يدعى إلىٰ الانتخاب فإنه لا يحق له الترشح حيث شاء إلا ضمن شروط، هٰذه الشروط إذن قيد علىٰ الحريَّة.

هٰذا مثال قريب إلىٰ الذهن سريع، ولٰكنَّ الحدود والقيود علىٰ الحريَّة كثيرة جدًّا في كل مجال ومكان وميدان. هٰذه القيود علىٰ الحرية ليست انتقاصاً من الحرية ولا انتقاصاً من قيمة الإنسان بالضرورة. هٰذه الضوابط هي الضرورة، مثلما الحرية ضرورة فإن الضوابط علىٰ الحريَّة ضرورة أيضاً.

الإنسان بطبعه طامع طامح جامع حرون متمرد يستطيع أن يمارس كل ذٰلكَ معاً بطاقاته القصوى في أيِّ فرصة تتاح له. ومن هنا تأتي ضرورة الضوابط كي لا يعتدي علىٰ حقوق الآخرين وكي لا يتعدى حدوده.

لنعد إلىٰ فضولنا في المقارنة مع عالم الحيوان. في تتبعنا العلمي لعالم الحيوان وجدنا بعض مظاهر الاستعراض وحب الظهور حسب مستوى فهمنا لعالم الحيوان بل إسقاطنا دلالاتنا عليه، وبمعاييرنا الإنسانيَّة... ولذٰلك لا نستطيع الجزم فيما إذا كانت كذٰلكَ فعلاً أم أنَّ لها في عالم الحيوان دلالاتٍ أُخْرَىٰ. ومع ذٰلكَ في إطار هٰذه الملاحظة أو التتبع وجدنا أيضاً هٰذه المظاهر محدودة في أوقات أو معطيات ظرفية محددة تقترن غالباً في أوقات السفاد، تنتهي بعدها علىٰ الفور ولا يبقى لها أي أثر، وتعود إلىٰ حياتها الطبيعية.

ولكنَّنا وجدنا في الإنسان أنَّ حبَّ الاستعراض والظُّهور والزَّعامة عقدة متأصَّلة في النَّفس البشريَّة بالعام وربَّما بالمطلق. ربَّما لأنَّهُ في يعيش ديمومة نشاط

جنسي غير منقطة ولا موسميَّة مثل عالم الحيوان... تفسير فرويدي لا نهمله ولا نعول عليه، وإنما من باب التَّداعي الدعابي.

تظل هذه العقدة عند الإنسان تحت السَّيطرة حَتَّىٰ ينكشف الغطاء عن الإنسان فإنَّهُ يريك من عجائبه ما تشيب لهوله الولدان الرضيعة. نحن لا نكتشف حقيقة خفية علىٰ الحكماء الفلاسفة والعلماء. لنرجع إلىٰ أدبيات الشعوب عبر آلاف السنين الماضية؛ حكمها، أمثالها، قصصها، أشعارها... سنجدها بارزة في كل عصر وفي كل مجتمع. ومن حكيم ما قالته العرب قول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن

تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم[٢٥]

ارتفاع القيد، ارتفاع الغطاء هو انتفاء سلطة فوقه، غياب السلطة التي تحكمه. القانون موجود ويظل موجوداً. القانون ليس أحكاماً مكتوبة علىٰ ورق أو جدران أو غيرها. القانون موجود في العقل سواء، والكل يدرك القانون. إيمانويل كانت قال يوماً: «أمران يملآن عقلي غبطة: السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقي في أعماقي». نحن لسنا بحاجة إلىٰ أي جهد لندرك القوانين العامة المرتبطة بالحرية أو لنقل التي تحدد مدى الحريَّة.

(٢٥) . رُبَّما سيوجد من يعترض بأني أكثر من الاتكاء علىٰ هٰذه البيت في تبيان عدوانية الإنسان أساساً في سلوكه. البيت لعملاق الشعر عبر التاريخ. هٰذا ليس سنداً كافياً بالتأكيد. الذي جعل هٰذا البيت سنداً وحكمة هو السلوك الإنساني عبر التاريخ السابق علىٰ المتنبي الذي أوحى له به، واللاحق علىٰ المتنبي الذي كرسه حقيقة تكاد تكون غير قابلة للطن أو الشك... لماذا تبتعدوا كثيراً: انظروا بشرف وأمانة إلىٰ ما يدور في العالم واحكموا بأنفسكم.

إذن ليست المشكلة في وجود القانون وإنما في وجود سلطة تطبق القانون. وإذا كان فلاسفة التنوير اختلفوا في أيهما الأولى القانون الجيد أم تطبيق القانون بالتساوي فإني أميل إلىٰ تطبيق القانون بالتساوي ولو كان جائراً، لأن الظلم في السوية عدل في الرعية كما تقول العرب. لٰهذا لا يعني أنني مع القانون الجائر. ولكنني أعني أنني مع تطبيق القانون بالسورية علىٰ كل الرعية.

إذن الحرية في العالم الغربي، ولا يعنيني مدى حدودها، محدودة بقوانين، وسلطة تطبق القوانين بصرامة، هي ليست صرامة مطلقة ولٰكنَّهَا عامة إلىٰ أبعد الحدود.

كثيرون يظنون علىٰ سبيل المثال أنَّ الرئيس في العالم الغربي لا يترشح لأكثر من دورة أو دورتين عفَّة وطهارة ورقيًّا حضاريًّا. لٰهذا وهم لا أساس له من الصحة. لا تظنوا أنَّ الرَّئيس في العالم الغربيِّ لا يتمسَّك بالكرسيِّ... القانون الصَّارم وحده هو الذي يحول بَيْنَه وبَيْنَ التشَّبث بالكرسي بأظافره ولسانه وأسنانه. ولولا سلطة تطبيق القانون قاهرة لوجدنا الرئيس يظل يترشح حَتَّىٰ (يسقط) في الانتخابات.

لا يوجد رئيس في العالم إلا ويظلُّ يترشَّح للرِّئاسة طالما أنَّ القانون يسمح له بذٰلكَ. توجد استثناءات بالتأكيد، ولٰكنَّ الاستثناء لا يقاس به ولا إليه ولا عليه. بل يقولون الاستثناء يؤكِّد القاعدة.

ترى في عالم الحيوان كيف يكون الأمر؟

في تتبُّع العلماء لعالم الحيوان نجد الأمر ذاته تقريباً، ولٰكن وجدوا أيضاً أنَّ في عالم الحيوان قوانين صارمةً أكثر من صرامة قوانين البشر هي التي تحيل الزَّعيم إلىٰ التَّقاعد أو تقتله لتضع حدًّا لوجوده غير المجدي في قيادة جماعته الحيوانيَّة.

في عالم الحيوان يظلُّ القائد قائداً طالما أنَّهُ لا يوجد من هو أفضل منه لقيادة المجموعة الحيوانيَّة. فإذا ظهر من هو أفضل قرَّرت المجموعة الحيوانيَّة التخلص من القائد منتهي الصلاحيَّة.

في عودٍ إلىٰ عالم البشر، ما لم يكن هناك قوانين مطبقة بصرامة، نجد أنَّ القائد الذي تنتهي صلاحيَّته يقوم هو ونظامه بجعل الشَّعب منتهي الصلاحيَّة ليكون من طبيعة قائده، غير غريب عنه مستواه في القدرات والكفاءات المهترئة المتهالكة. وإذا نادى الشَّعب بإسقاط القائد نادى القائد بإسقاط الشَّعب.

فقط الدول التي تحكمها قوانين ودساتير صارمة لا تصل إلىٰ هٰذه النقطة، وإن كان يمكن أن تستخدم الطَّريقة ذاتها في أشياء أُخْرَىٰ تحت المزاعم ذاتها؛ أمن الوطن، أمن الأمة، المصالح العليا، وبعضها أمورٌ قد تقتضيها الضَّرورة وقد تقتضيها سياسة الدَّولة، وقد تكون غير ذٰلكَ.

لا بديل عن الاستبداد[٢٦]

للأمانة والتاريخ، يجب أن يدرك الإنسان حقيقة لا مفر منها. هو يعيشها شاء أم أبى، ولٰكنَّ قليل من يدرك أنَّهُ يعيشها، وأنَّها تعاش كذٰلكَ.

لا توجد حرية مطلقة. والديمقراطية لا تعني الانفلات وتنطع كل من هب ودب ليقول رأيه ويفتي... ولا بديل عن الاستبداد. الاستبداد وحده الذي يصنع المجتمعات، وعدم وجوده لا يعني إلا غابة مجانين لا غابة حيوانات. لا يضبط الإنسان إلا الاستبداد، العصا الغليظة بمعنى أو بآخر.

(٢٦) . نشر لهذا المقال في ٢٠١٤/٤/٦م في عدد من مواقع النت والتواصل الاجتماعي.

أنا لا أعني أن المستبد هو الضرورة. أعني الاستبداد. والفرق بينهما وساع شاسع. ومع ذَلكَ الحاكم المستبد مستوى من الاستبداد أو نوع من أنواعه.

نحن أمام ثلاث أنواع للاستبداد هي:

استبداد نظام سياسي وهو عامة أسوأ أنواع الاستبداد على الإطلاق لأنه يحول الدولة والمجتمع إلى عصابة متماسكة تتخلخل في كل خلايا الدولة والمجتمع ويصعب إسقاطه إلى حد كبير جدًّا. لا علاج لمثل هٰذا النوع من الاستبداد ما يجتث النظام كله من جذوره وجذور جذوره... وإلا فإنه سيعيد إنتاج ذاته بسرعة كبيرة جدًّا أو حَتَّى بهدوء. وعدم اجتثاث النظام بهذه الطريقة العميقة لن يغير شيئاً في بنية الدولة والمجتمع.

استبداد الحاكم الفرد وهو على ما يبدو عليه الحاكم من تأليه فإنه سريع الانهيار لدى أي هزة أو هزة كبيرة. ولٰكنَّ الحقيقة التي يجب أن ندركها أن المستبد الفرد غالباً ما يلجأ إلى مأسسة نظام متخلخل في خلايا الدولة والمجتمع يبدو الحاكم الفرد هو الفرد الوحيد ولٰكن من ورائه بنية نظام فاسد، شبكة من الفساد السياسي والاقتصادي تحقق للطبقة المسماة بالنظام مصالح كبيرة تجعلها مرتبطة بالحاكم الفرد دفاعها عنه هو دفاعها عن نفسها. إن سقوط الحاكم الفرد هنا يؤدي إلى انهيار النظام كله، ولٰكنَّ طبقة النظام هٰذه حَتَّى إذا سقط النظام فإنها لا يمكن إلا أن تحاول إعادته بطريقة أخرى تعيد لها مكاسبها.

استبداد دولة القانون هو في حقيقة الأمر دولة سيادة القانون على الجميع بدرجة واحدة. قد يعترض كثير على تسمية دولة القانون بدولة استبداد القانون. هٰذا أمر يخصهم. ولٰكن واقعياً هي دولة استبداد القانون. هي دولة ديمقراطية كما يحلو لبعضهم تسميتها. لا بأس، ولٰكنَّ سمتها الأساسية أن القانون مستبد

لا يجرؤ أحد على مخالفته، ومن خالفه مهما كان مكانه ووضعه سيرضخ له شاء أم أبى. إن انضباط المجتمع الغربي والتزامه وحَتَّى أخلاقه ليست إبداعاً شخصيًّا بقدر ما هو خوف، عدم رغبة، احترام للقانون... تختلف التسميات ولكمن المبدأ واحد، والنتيجة واحدة.

مشكلة أكثر البشر(٢٧)

أنهم ينظرون إلى سلوك الآخرين من عين قناعتهم هم فإذا وافق سلوك الآخرين قناعتهم فهو جيد وصواب فقط لأنهم هم مقتنعون به، على الرغم من أنه قد يكون خاطئاً

وإذا خالف سلوك الآخرين قناعتهم فهو باطل وضال لأنه يخالف ما يقتنعون به على الرغم من أنه قد يكون عين الصواب

أكثر البشر يعطون الآخرين الفرص ليعدوا النظر في قناعاتهم وعقائدهم ولٰكنَّهُم لا يفكرون أبداً في أن يأخذوا مثل هٰذه الفرصة ليعيدوا هم النظر في قناعاتهم وعقائدهم. وإذا قيل لهم: لماذا لا تعيدوا النظر في قناعاتكم؟ أجابوا: ولماذا أنت لا تعيدون النظر في قناعاتكم وعقائكم؟ وكأن المسألة مسألة تحدي فيمن يمكن أن يقبل التفكير في قناعاته وعقائده.

في هٰذا السياق أستطيع القول: لا تظنوا أن طاهر القلب والنية لا يعرف أنه طاهر القلب والنية، ولٰكن رُبَّما لا يستطيع أن يكتشف فاسد القلب والنية. ولٰكن من الطرف الآخر لا تظنوا أن خبيث القلب والنية لا يعرف أنه خبيث القلب والنية، ويعرف الآخر إذا كان طاهر القلب والنية.

(٢٧) . نشر هٰذا المقال في ٢٠١٤/١١/٢٨م في عدد من مواقع النت والتواصل الاجتماعي.

أعني من هٰذه المقاربة الأخيرة أن الحقائق واضحة ولا تحتاج إلى معجزات لمعرفتها، ومع ذٰلكَ لا يقل الجدال فيها عن الجدال في الألغاز التي لا تعرف الحل.

الكبر والعناد عند الإنسان، الكبير والصغير والمثقف وعديم الثقافة، يقف وراء كثير من هٰذه السلوكات، ولذٰلك تجد الواحد منهم مستعداً لأن يضع رأسه مداساً لخصمه وعدوه مقابل أن يغيظ أحداً ما... فماذا يمكن يفعل مثل هٰذا الشخص بمن يريد أن يغيظه؟

عامة الناس غير معذورين في نظري، ولٰكنَّهُم معذورون إذا ما قورنوا بالمتعلمين والمثقفين. فمن البداهة ما قاله المتنبي: كبيرة الصغير صغيرة، وصغيرة الكبير كبيرة. فإذا سمع العامة ونقلوا واقتنعوا بما نقلوا من دون محاكمة فإنك تجد لهم عذراً، ولٰكن ما عذر مثقف أو مبدع وهو يقص وينقل من دون تحقق؟ وتزداد المأساة إدهاشاً عندما يكون المنقول بحاجة ماسة إلى التحقق.

* * *

الفصل الرابع

إنهيار إنسانية الإنسان

لماذا تسد الأبواب أمام السوريين؟

تباً لكم أيها البشر

السوريون يحترقون والعالم يصفق لهم

العالم اللاإنساني واللهو بمأساة السوريين

لم تكن الدُّول العربيَّة مفتوحة أمام السُّوريين كما هي مفتوحة أمام الأوربيين والأمريكيين والآسوييين والقطبيين الجنوبيين والشَّماليين... هٰذا صحيح، ولٰكنَّهَا علىٰ الأقل لم تكن مغلقةً بهٰذه الطَّريقة البشعة الشَّنيعة التي هي عليه اليوم.

لماذا تسد الأبواب أمام السوريين؟[٢٨]

أيَّامَ كان السُّوريون بخيرٍ كان العالم العربيُّ كلُّه مفتوحاً أمامهم من دون تأشيرة. وعندما تعرَّض السُّوريون للقتل والتَّشريد وتدمَّرت أملاكهم وحياتهم واحتاجوا أشقاءهم العرب أغلق العرب أمامهم الأبواب وصاروا يشترطون آلاف الشُّروط لدخولهم إلىٰ بلادهم... كلُّ الدُّول العربيَّة تفعل ذٰلكَ وليس لبنان فقط. كلُّ الدُّول العربيَّة تفعل ذٰلكَ علناً، والدَّولة التي لا تفعله علنا تفعله من تحت الطاولة رُبَّما بطريقة أشد، في حين تعلن في التَّصريحات ووسائل الإعلام أنَّها متضامنةٌ مع السُّوريين.

لم تكن الدُّول العربيَّة مفتوحة أمام السُّوريين كما هي مفتوحة أمام الأوربيين والأمريكيين والآسوييين والقطبيين الجنوبيين والشَّماليين... هٰذا صحيح، ولٰكنَّهَا علىٰ الأقل لم تكن مغلقةً بهٰذه الطَّريقة البشعة الشَّنيعة التي هي عليه اليوم.

---

(٢٨) .كتب هٰذا المقال في ٥/١/ ٢٠١٥م، ونشر في الفترة ذاتها.

يا أخي الأخوَّة العربيَّة أخوة غير شكل غير شكل.

المسألة ليست سهلةً أبداً.

العتب واللوم ليس صغيراً أبداً.

يجب أن تعلموا قبل أيِّ شيءٍ أنَّ أزمة تشرد السُّوريين هي الأكبر منذ الحرب العالميَّة الثانية، لهذا وفق تقديرات عالميَّة صادرة عن كثير من المؤسسات الرسميَّة وليست محض تقديرات تخيليَّة نابعةً عن الوجع والألم من هذا السُّوري أو ذاك. بل إنَّهَا تقديرات الحدِّ الأدنى الذي لا يمكن النُّزول عنها حرجاً أمام العقل والمنطق. وللتَّوضيح على سبيل المثال؛ في حين وصل عداد القتلى إلى نحو مليون فإنَّ عدد الأمم المتحدة والمنظمات الدوليَّة متوقِّف عن مئتي ألف منذ سنتين.

تخيلوا يا رعاكم الله، فواجع وكوارث حرب عالميَّة خاضتها عشرات الدُّول الكبرى، على مدار نحو سبع سنوات، تتكافئ نظرياً وعمليًّا مع فواجع الثَّورة السُّوريَّة من قتل وتشريد ودمار ولجوء... قبل أشهر قليلة وصفت اليونسكو/ الأمم المتحدة دمار حلب بأنَّهُ أكبر دمارٍ في تاريخ البشريَّة بعد دمار هيروشيما التي دمرتها أول قنبلة نوويَّة...

مع كلِّ هذه المصائب غير المسبوقة في التَّاريخ البشري وقف أهلنا العرب وقفةً لئيمةً غير مسبوقةٍ في تاريخ البشريَّة من تعقيدات الدُّخول وإجراءات الإقامة والانتقال ومنع الدُّخول والتَّهجير والإعادة إلى النِّظام ومنع العمل... ناهيكم عن الأحقاد التي تضع العقل في الكفَّ: الأشقاء العرب يحسدون السُّوريين على الخيام التي يقيمون فيها بَيْنَ الجبال والصَّحارى وسط البرد القاتل والحر القاتل... الأشقاء العرب

يحسدون السُّوريين إذا رأوا بيدهم رغيفاً ويتندرون بهم؛ أيأكل خبزاً وهو مشرد؟!! تستحقُّون كلَّ ما يحدث لكم؟

غير معقول...

غير معقول أبداً ما يحدث ويدور.

في الوقت ذاته تجدون العالم وعلىٰ رأسه الأشقاء العرب يستنفرون لهجرة نحو مئتي إيزيدي استنفاراً يفوق استنفار العالم لتشريد ملايين السُّوريين، ويقدمون من المعونات لمئتين وخمسين إيزيدي تفوق ما يقدم لملايين السُّوريين، ويتمسحون بالأيزيديين ويتبركون بهم، ويتبرمون بالسُّوريين.

هزلت وكم قلت إن كلمة هزلت أقل بمليون مرة مما نراه.

لا نحسد الإيزيدين علىٰ هبة العرب والعالم لنجدتهم، ولا يزعجنا ذٰلكَ، ولٰكنَّنا نضحك من هٰذه المفارقات تشق الرأس نصفين ألماً.

ربِّ إليكَ وحدك المشتكى.

أختم بعنوان المقال: لماذا تسد الأبواب بوجه السُّوريين؟

هٰذا هو السُّؤال الذي يجب أن يطرح، وهو السؤال الذي يجب أن نفهم إجابته، الإجابة الواضحة الحقيقة هي التي تفسر ذٰلكَ. لن أجيب إجابةً مباشرة، سأجيب بتساؤلاتٍ خاطفةٍ يمكن أن تفتح أفق الوصول إلىٰ الحقيقة:

. هل هو عقاب علىٰ لهم قيامهم بالثَّورة؟

. هل هو لإعادتهم إلىٰ حضن النظام؟

. هل هو خوف منهم لسبب نجهله؟

. هل هو من عجز عن مساعدتهم؟

ـ أم هي الطَّبيعة الحقيقيَّة للأشقاء العرب حكومات وشعوباً ولم نكن ندركها، والثَّورة السُّوريَّة هي فرضت علىٰ الجميع أن يتعرَّى ويظهر علىٰ حقيقته؟

تباً لكم أيها البشر[٢٩]

من تفاهات البشريَّة أنَّهَا جعلت من مأساة السُّوريين مرتعاً يتفسحون به ويمارسون فيه عروضهم المسرحيَّة والبهلوانيَّة...

وكأن السُّوريين تشردوا كي يأتيهم كركوز وعواظ لينطوطوا أمامهم ويهرجوا لهم!!!

ومع عدم المؤاخذة:

هل الذين يهرجون لأطفال سوريا المشردين يروحون عن الأطفال أم يروحون عن أنفسهم؟

هل لهذا ما يحتاجه الأطفال السُّوريون المشردون الملتحفون بالثلج؟

تباً لكم أيها البشر كم أنت بارعون في التهريج عندما يجب أن تطلقوا النار علىٰ التهريج!!

هل قام السُّوريون بثورتهم حتى ينتقلوا من بيوتهم إلىٰ خيام في دول الجوار تلعب بها رياح الشتاء وغبار الصَّيف، وتأتوا لهم لتروحوا عنهم بنكاتكم السَّخيفة وتهريجاتكم السَّفيهة؟

أيعقل أنَّهُ لم يعد من عمل أو واجب أمام المجتمع الدَّولي بمؤسساته الرسميَّة وغير الرسميَّة وأعلامه ورموزه إلا الضَّحك علىٰ المشريدين بَيْنَ الحين والحين

(٢٩) .كتب لهذا المقال في ٨/١/ ٢٠١٥م، ونشر في الفترة ذاتها.

بمسرحيَّة كراكوزاتيَّة للأطفال وأُخْرَىٰ عيواظاتيَّة للكبار... وفي أحسن الأحوال بعلبة بسكويت وعلبة محارم تواليت مع سائل جلي علما أنَّهُ لا يوجد مجلى ولا مطبخ؟!!

هل هٰذه السُّلوكات مبرمجةٌ مقصودةٌ أم علىٰ براءة الأغبياء والمهابيل؟

الشَّعب السُّوري كله في حالة تشرد شبه كاملة. سوريا أم الحضارات والأبجديات والتاريخ... سوريا أم البشريَّة كلها في حالة تشرُّد وإبادة ودمار. لن أتحدث في الإحصاءات التي تشقُّ الرَّأس نصفين وكل نصفٍ إلىٰ أنصاف. لننظر فقط في التَّشرُّد.

أكثر من ستة ملايين مشرد سوري خارج سوريا، أي نحو ثلاثين بالمئة من الشَّعب السُّوري مشرَّد خارج سوريا. وليس أقل من ستة ملايين مشرَّد سوري داخل سوريا، أي أيضاً نحو ثلاثين بالمئة من الشَّعب السُّوري مشرَّدٌ خارج سوريا... أي ما لا يقلُّ عن ستين بالمئة من الشَّعب السُّوري مشرَّدٌ ما بَيْنَ الدَّاخل والخارج، أكثر من ستين بالمئة من الشَّعب السُّوري خارج منازله علىٰ الرَّغْمِ منه...

هٰذا لا يعني أنَّ من هم في ديارهم ومنازهم ليسوا في حالة تشرد وضياع... حسبك في أحسن الأحوال كثير منهم بيته أمام عينيه ولا يجرؤ علىٰ قرع بابه أو الاقتراب منه!!! وبالمطلق حالهم ليس أقل مأساويَّة عمَّن يعيشون في الخيام المحاصرة بالثلوج من تحت ومن فوق ومن اليمين واليسار والأمام والخلف... حَتَّىٰ في الاسكيمو قد يصعب عليك الحصول علىٰ هٰذه الرفاهيَّة الثلجيَّة... لا كهرباء، لا غاز، لا مازوت... ولا حطب... يعني المأساة صيفيَّة شتويَّة... وفوق ذٰلكَ كله: لا عمل، لا دخل!!!

عمليًّا أكثر من ثلثي الشَّعب السُّوري يعيش إيقاع المأساة ذاته... يرقص علىٰ الثلج والجمر في وقتٍ واحدٍ ألماً لا فرحاً. كلُّ ذَلكَ بريشة الغرب الإنساني أكثر مما هو بفعل النِّظام. النِّظام ليس سوى الأداة التي دمرت ولٰكنَّ الغرب هو الذي أراد وساهم وخطط وقاد الأمور لتصل إلىٰ هٰذه النَّتيجة...

لن أدخل في تفاصيل أكثر خطورة من فكرتنا هنا، أكتفي فقط بتسليط الضَّوء علىٰ هٰذه العبثيَّة في التَّعامل مع المأساة السُّوريَّة:

السُّوريون يحترقون والغرب يصفق ليوحي لنفسه بأنَّهُ يشاهد عَرْضاً مسرحيًّا!!!

السُّوريون يموتون من البرد والعالم يتجادل هل يعطي بطانيَّة أم بطانيتين للمشرد!!!

السُّوريون بلا عمل، وممنوعون من العمل في دول اللجوء، وخاصة العربي، والمجتمع الدولي يقرِّر وقف الإغاثات التي يقدِّمها لهم!!!

وتكتمل دائرة الصَّفاقة البشريَّة اليوم التَّاسع من كانون الثَّاني ٢٠١٢م بوقوف مجلس الأمن دقيقةَ صمتٍ حداداً علىٰ أرواح اثني عشر شخصاً قتلوا في فرنسا أمس بينما مجلس الأمن هٰذا ذاتها يتعامل منذ أربع سنوات مع مقتل مئات ألوف السُّوريين وكأنَّهَا دمى بيد كراكوز وعواظ. دماء اثني عشر شخصاً حظيت أكثر ألف ألف مرة مما حظيت به دماء مئات ألوف السُّوريين ناهيك عن نحو خمسة عشر مليون مشرد، أكثر من لثلثي سكان سوريا!!!

وجع علىٰ وجع، السلسلة أطول من أن تنتهي، وكلها وجع علىٰ وجع.

عندما يغيب المنطق وتحضر الأنا ستكون الأخلاق في المزبلة.

فلا تسألوا عن الأخلاق عندما يداس المنطق لمصالح الأنا.

السوريون يحترقون والعالم يريد تعليمهم الرقص

في حين أن الفلاسفة والمفكرين كتبوا عشرا الكتب تحت عنوان: إنسانيَّة الإنسان، سأقلب المجنَّ وأحدِّثكم عن «لا إنسانية الإنسان»(٣٠).

في أوساط عام ٢٠١٢م كتبت معلقاً علىٰ الموقف الدَّولي بالمطلق من الثَّورَة السُّورية قائلا: «حَتَّىٰ بعد انتصار الثَّورَة السُّورية يجب أن نقف وقفة حداد علىٰ الضمير العربي والإسلامي والعالمي»، وفي أواخر عام ٢٠١٢م كتبت: «من كنا نشكو صمتهم تكلموا، وعندما تكلموا ندمنا علىٰ أننا لمنا صمتهم... قتلونا بصمتهم، وسيقتلون الثَّورَة بكلامهم».

أنموذجان من كثير من التَّعليقات التي كتبتها بعد سنة علىٰ الثَّورَة، ولست الوحيد الذي استاء أشد الاستياء من الاستهتار الدَّولي بالمأساة السُّورية وتلاعبهم بها، كتبت الكثير في ذَلكَ من زوايا مختلفة، ولٰكنَّ بقيت يافطة ثوار كفرنبل التي رفعوها في ٢٠١١/١٠/١٤م أبلغ من كل الكلام، قالوا: «يسقط النِّظام والمعارضة... تسقط الأمة العربيَّة والإسلاميَّة... يسقط مجلس الأمن... يسقط العالم... يسقط كلُّ شيء».

تعبير صارخ جدًّا بعد أشهر من الثَّورَة يعبر عن المأساة بعمق وبلاغة فريدة، وأبلغ ما فيه أسبقيته التي قرأت بعمق التَّخاذل العالمي والنَّذالة العالميَّة في التَّعامل مع الثَّورَة السُّورية والمأساة السُّوريَّة.

لم تكن الأمور حَتَّىٰ نهاية عام ٢٠١٢م واضحةً للكثيرين، بل حَتَّىٰ الآن ليست واضحةً للكثيرين أيضاً، ولم تكن الممارسة العالميَّة والعربيَّة والإسلاميَّة

(٣٠) .كتب هٰذا المقال في ٢٠١٥/١/٢٤م، ونشر في الفترة ذاتها.

بشعةً بمثل ما صارت عليه منذ مطالع عام ٢٠١٣م. فقبل أن تبدأ الثَّورَة عامها الثَّالث انقلبت بل انكشفت الممارسات المعادية لمطامح الشَّعب السُّوري وللثَّورة السُّورية من قبل الأنظمة العربيَّة قبل الغربيَّة ومنها جميعاً علىٰ السواء.

منذ تلك الفترة بدأت الأيدي الخبيثة تحيل الثَّورَة شيئاً فشيئاً إلىٰ ضرب من اللهو والعبثية والتسلية. أسقطوا كلمة الثَّورَة من التداول وصار يتحدثون عن صراع، عن معارضة ونظام، وشيئاً فشيئاً تلاشت كلمة الثَّورَة السُّورية من وسائل الإعلام كلها تقريباً. نحو سنتين تماماً مضيتا علىٰ سحب كلمة الثَّورَة السُّورية من التداول.

ومنذ تلك الفترة صاروا يشغلون السُّوريين المهجرين والمشردين في الداخل بموضوعات تافهة رقيعة سخيفة، ويهمشون الحديث في الثَّورَة ويتغافلون الحديث عن الألم والمعاناة. لقد مارسوا ومازلوا يمارسون ذَلكَ بنذالة. شركاؤهم في ذَلكَ سوريون رخيصين رقيعون يسهلون لهم هٰذه المهام من أجل حفنة دولارات يقبضونها أجرة أو مكافأة أو سرقة.

في حين أنَّ الدماء تسيل في أرجاء سوريا أنهاراً...

في حين أنَّ هناك ما لا يقل عن نصف مليون شهيد في الحد الأدنى...

في حين أنَّ هناك ما لا يقل عن مليون مصاب حرب...

في حين أنَّ هناك نحو نصف مليون معتقل نصفهم مجهول المصير...

في حين أنَّ أكثر من ستين بالمئة من كامل البنية التحتية السُّورية مدمرة...

في حين أنَّ أكثر من ثلث سكان سوريا مشردين خارج سوريا...

في حين أنَّ نحو ثلث سكَّان سوريا مشرَّدين داخل سوريا...

في حين أنَّ المشردين ما بَيْنَ الداخل والخارج ثلاثة أرباع سكان سوريا علىٰ الأقل، أي نحو خمسة عشر مليون سوري، أي ما يعادل سكان ثلاث دول المجاورة، ما يعادل عدد سكان نحو خمسين دولة صغيرة في العالم...

في حين ذَلكَ كله وغيره وغيره من المآسي التي لا يمكن أن تكون عرفتها البشرية فيما خلا الحرب العالمية الثانية بالقياس والنسبة حَتَّىٰ الكم ذاته... في حين ذَلكَ كله لم يجد المجتمع الدَّولي ومؤسساته المختلفة ما يمكن أن يفعلوه أو يقدِّموه للسُّوريين سوى دورات تعليم الرقص الشَّعبي والفلامنچو... ودورات تعليم فنِّ الخط وفن الخطابة، وفنون التَّطريز والخياطة، ودورات استخدام الحاسوب، ودورات الدَّعم النَّفسي، ودعم الدَّعم النَّفسي، ودورة الإدارة المحليَّة، والإدارة المحكيَّة، والإدارة الحكيَّة، ودورات إدارة الخبر ونشر الخبر والتَّصوير الفوتوچرافي والتَّصوير السِّيلفي... وهلم جرًّا من هٰذه الدورات في النطوطة والزعوطة والبطبطة...

هي كلها سخافات وتفاهات مهما بلغت ما بلغته من الفوائد. هٰذه الدورات كلها هدر الأموال والأوقات، وزرع الأنانية في نفوس الناس عن طريق شغلهم بمصالحهم الخاصة والشخصية وملئ فراغاتهم بهٰذه التفاهات والسخافات وتهميش الاهتمام والتَّفكير بالمأساة وجذر المأساة... وإيصالهم إلىٰ مرحلة اليأس والإحباط.

هنا صار من الممكن إدراك لماذا يحارب ويحاصر العالم أجمع المهاجرين السُّوريين. قلَّما قلَّما لقي شعبٌ مهجَّرٌ ما لقيه السُّوريون من تضييق وحصار في الدَّول العربيَّة تحديداً... كلها من أجل قهر أغلبية السُّوريين وإحباطهم وتيئتسهم لجعلهم يقبلوا بالتوافقات التي ترتئها دول المنطقة والدَّول الأُخْرَىٰ التي تلعق من الدم

السُّوري، وفي الوقت ذاته تظهير فريق الفاسدين والمنافقين والوصوليين واللصوص وتقديمهم إلىٰ الأمام ليقودوا سوريا بعد انتهاء (الأزمة)، بعد انتهاء الأزمة وليس انتصر الثَّورَة، لن يهمهم كيف تنتهي الأزمة، يهمهم تشكيل فريق قيادة سوريا بالطريقة التي يريدونها سواء أسقطوا النِّظام أم أبقوه واجهة فاعلة أو منفعله.

لا أريد العودة إلىٰ كثير ما كتبت في المواقف العربية والدَّولية من الثَّورَة وتعاملهم معها يمكن العودة إليها لمن شاء. أردت فقط أن أركز علىٰ مشهد الوقاحة والصَّفاقة والتَّفاهة في التَّعامل الدَّولي مع السُّوريين في مأساتهم.

أيعقل أنَّهُ بعد كلِّ معطيات الثَّورَة السُّورية لا يجد المجتمع الدَّولي إلاَّ هٰذه الممارسات التَّرفية والترفيهية والكمالية ليساعد بها السُّوريين؟

أيعقل بعد كل الحقائق المريعة التي لا يجهلها متابع أن يتجاهلها المجتمع الدَّولي كلها ولا يجد سوى أن يعلم السُّوريين السباحة وفن التعامل مع الحاسوب وأصول التَّصوير وضوابط العمل الإداري وهلم جرًّا من هٰذه الدورات؟!

لا يمكن أن يكون علقهم مختلاً إلىٰ هٰذه الدَّرجة. إِنَّهُم يدركون ماذا يفعلون. فهل يدرك السُّوريون ماذا يفعلون؟!

أقول هم يدركون ما يفعلون والأدلة جدُّ كثيرة علىٰ ذٰلكَ، والأمثلة أكثر من أن تعدَّ وتحصى. سأختم بمثالين طريفين: قطَّة النِّظام وقطة حمص، بل حيوانات الثَّورَة كلها.

في أواخر عام ٢٠١٢م أصيبت قطة في حمص بقصف النِّظام، ولأنَّ الثُّوَّار أدركوا لا إنسانيَّة البشر في التَّعامل مع الثَّورة راحوا من باب السُّخريَّة يعمِّمون صورة القطَّة المصابة وقد عالجها الثُّوَّار لاستدرار العطف العالمي... قائلين: بما أنكم لا تتعاطفون مع دماء البشر تعاطفوا مع القطة. وفعلوا مثل ذٰلكَ استكمالاً

للسُّخرية مع كثيرٍ من الحيوانات التي تعرضت للقصف أو القتل أو الحرق... ولٰكنَّ الضَّمير العالمي لم يتحرَّك ولم يتزحزح وظلَّ في غِيِّه يترنَّح. لا مجال للتَّعاطف مع كلِّ ما يمتُّ للثَّورة بصلةٍ من بشر وحيوانات وشجر وحجر.

في الوقت ذاته، في أواخر عام ٢٠١٤م، رُبَّما في قلب مدينة دمشق إن لم أنس، وصلت قطة إلىٰ رأس شجرة سرو عالية، لا أدري كيف وصلت وليس مهمًّا، المهمُّ أن النِّظام الحنون العاطف علىٰ الحيوانات جاء بالرافعة وفريق إنقاذ وصعد فريق الإنقاذ إلىٰ أعلى الشجرة وأنزل القطَّة... وصوَّر العمليَّة ونشرها، فوجدت نصيباً جيِّداً من التَّفاعل العالمي وتقدير سلوك النِّظام النَّبيل العظيم في إنقاذ القطَّة. ليبدو جليًّا أن حيوانات النِّظام مثل النِّظام تجد تعاطفاً دوليًّا وتفاعلاً.

أكرر: الأمثلة كثيرةٌ وكثيرةٌ جدًّا، وليست بسبب ظهور الجماعات الإسلاميَّة كما يزعمون. إنَّهَا منذ أيَّام الثَّورة الأولى، ودليل ذٰلكَ ما نشره منذ أسبوعين تقريباً الفنان فارس الحلو الذي وقف مع الثورة منذ بدايتها، قال:

«في أول جمعة من شهر نيسان عام ٢٠١١م شهدت أوَّل مجزرة ترتكب بحقِّ المتظاهرين في مدينة دوما. كان الشباب يتساقطون أمامي من زخات رصاص تجمعات الشبيحة. وكنت أنقل الصورة مباشرة أمامي عبر صفحتي هٰذه، ثمَّ جاءني اتصال من تلفزيون الأورينت لأشهد بالواقعة... في اليوم نفسه أرسلت مقالاً مطولاً عن مدينة دوما لصحيفة لوس أنجلوس تايمز، بناء علىٰ طلب مراسلة الصَّحيفة».

يتابع فارس الحلو قائلاً: «بعد نشر المقالة فوجئت بتزوير الحقيقة في مقالتي!!! لقد نشرت الصَّحيفة الأمريكيَّة أنَّ المواجهة التي حدثت في دوما كانت بَيْنَ النِّظام والإسلاميين!!!».

ختم فارس الحلو قائلاً: «يومها أدركت أنَّ هناك من سيلعب بنا، وأنَّ مواجهتنا يتمُّ التحضير لها جيِّدا».

ولٰكنَّه للأسف تأخر في فضح ذٰلكَ. ولٰكنَّ الحقيقة مفضوحةٌ من دون نشر هٰذه المعلومة، الحقيقة واضحةٌ وكتبت فيها الكثير منذ ذٰلكَ الحين استقراءً، ثمَّ جاءت المعلومات لتؤكد الاستقراءات.

العالم اللاإنساني واللهو بمأساة السوريين[٣١]

هل كان يتخيَّل أفلاطون وهو يخطِّط للمدينة المثاليَّة التي ينشدها للبشر أن يصل انحطاط البشر إلىٰ هٰذا الدَّرك الأحط من الأحط؟

هل كان يخطر في بال الفارابي وهو يرسم ملامح المدينة الفاضلة التي ينشدها للبشر أن يصل انحطاط البشر إلىٰ هٰذا المستوى؟

ومروراً بالأوغسطيني وسان سيمون وسيسموندي وتوماس مور وكامبانيلا وسائر الفلاسفة الذي رسموا أجمل الخيالات للمجتمعات المثاليَّة التي يجب أن يعيشها البشر... هل تخيَّل أحدٌ منهم أمثال سخافات البشر التي نعيشها اليوم؟

هي ليست سخافات في حقيقة الأمر، هي ممارسات صعبة الوصف، يصعب عليَّ أن أجد لها وصفاً يناسبها.

في الظروف العاديَّة من السَّهل عليك تفهُّم أنَّ العلماء يجعلون النَّاس حقول تجارب بإرادتهم أو بالتحايل عليهم. بل يمكنك تقبُّل ذٰلكَ في سبيل البحث العلمي... ولٰكن أن تتحوَّل مأساة شعبٍ غير مسبوقةٍ في التَّاريخ إلىٰ

(٣١) .كتب هٰذا المقال في ١٣/٣/ ٢٠١٥م، ونشر في الفترة ذاتها.

حقل تجارب، والتَّعامل مع هٰذه المأساة علىٰ أنَّها فأر تجارب، فهٰذا ما لا يخطر في بال.

يمكن توقع بعض الحالات الفرديَّة القليلة، علىٰ أنَّها الاستثناء الذي لا بُدَّ له من الوجود. بل أضيف فوق ذٰلكَ أنَّهُ من الممكن استيعاب هٰذا السُّلوك لو أنَّ الباحثين أنفسهم، أو مؤسَّسات، أو دولهم، أو المجتمع الدولي يقوم بواجبه، بل بنصف واجبه تجاه هٰذه المأساة. ولٰكن أن يتمَّ إهمال أسباب المأساة، والتَّغاضي عنها، والسكوت عليها... وتركيز الجهود معظمها علىٰ تحويل معاناة السُّوريين وآلامهم التي رُبَّما لم يعرف التاريخ لها فيما قبل مثيلاً... إلىٰ حقول تجارب وأبحاث ودراسات أكثرها سخيف تافهٌ، وكلُّها للبطر العلمي وليس من أجل الاستفادة منها في مساعدة السُّوريين في مأساتهم، فهٰذا ما لا يمكن أن يقبل ولا أن يصدق ولا أن يطاق.

نعم، هٰذه هي الحقيقة التي يجب أن يعلمها العالم البائس السَّفيه قبل أن يعلمها السُّوريون. وعلىٰ السُّوريين أن يعلموها جيِّدا ولا ينجرفوا وراء هٰذه التَّفاهات والسَّخافات؛ تفاهات وسخافات لأنَّهَا لا تقوم علىٰ أي نوايا حسنة، ولا تقام في ظلِّ أدنى إحساس بمعاناتهم وآلامهم. العالم التَّافه السَّفيه حوَّل سوريا والسُّوريين إلىٰ حقل تجارب وميادين أبحاث نفسيَّة واجتماعيَّة وأركيولوجيَّة وتدريبيَّة.

سيستغرب الكثيرون مني استنكاري استثمار الحالات الاستثنائيَّة في دراسات وبحوث يمكن أن تخدم البشريَّة... أمرٌ مستغربٌ مني وأنا الباحث المحرض علىٰ البحث والمشجع علىٰ البحث والمدرس لأصول البحث وكتابة البحث.

الحقيقة التي يجب أن تكون واضحةً هي أنَّ الاستنكار ليس للبحث بحدِّ ذاته. ولست ممن يعترض علىٰ الاستفادة من المأساة السُّوريَّة في الوصول إلىٰ نتائج علميَّة تخدم العلم، تخدم البشريَّة في اكتشاف حقائق ومعطيات ومعلومات لم تكن مكتشفة، أو يعزُّ اكتشافها من دون تحقق مثل ظروف المأساة السُّوريَّة. ولٰكنَّ ما يحدث لا يمكن أن ينفصل عن السِّياق الذي اتمر به المأساة السُّوريَّة من تخاذل وصمت بل من غض الطرف عن جذر المأساة الذي ينمو نموًّا سراطانيًّا واللهو بمأساة السُّوريين وتحويلهم إلىٰ حقول تجارب صفيقة؛ كل يومٍ فريق بحث من ماركة غير مسجلة أو مسجَّلة يتسلَّل بَيْنَ السُّوريين وهم في قلب اللهب، ينهي بحثه ويمضي.

وما النتيجة؟

استمرار مأساة السُّوريين ومعاناتهم وعوزهم، في حين يقبض اللاهون بمأساتهم كميات الأموال والمكافآت من قبل جهات داعمة أو ممولة للأبحاث.

أكثر من تسعين بالمئة من الأبحاث التي تجرى علىٰ المشردين السُّوريين في الخارج والداخل تافهو بلا قيمة ولا معنى، نصابون أفاقون امتهنوا الاتجار بالمعاناة والألم، يقدمون مشاريع وهميَّة سطحيَّة سخيفة يقبضون عليها كميات الأموال علىٰ أساس أنَّهُم يساعدون السُّوريين، وينهبون هٰذه الأموال ويتركون الشعب السُّوري يتقلب بَيْنَ ألسنة اللهب.

هٰذا وجهٌ اللهو والعبثيَّة بمأساة السُّوريين ومعاناتهم، هناك أوجه أُخْرَىٰ من الاتِّجار بالسُّوريين ومأساتهم ومعاناتهم وتشردهم، سنعود إليها لاحقاً.

تجار الحروب اسم شائع جدٌّ شائع منذ عشرات السِّنين وليس من الاصطلاحات الجديدة علىٰ الإطلاق. ولٰكن عندما نسمع هٰذا الاسم أو

الوصف لا يخطر في بالنا سوى أنَّهُم الذين يقومون بتجارة السِّلاح والتَّربُّح من هٰذه التِّجارة.

تجار الحروب أيُّهَا السَّادة ليسوا من يبيع الأسلحة للمتقاتلين. صحِّحوا معلوماتكم من فضلكم. الذين يبيعون الأسلحة للمتقاتلين يسمون تجار سلاح؛ سيَّان أعلموا سرًّا أم عملوا جهراً. اسمهم تجار سلاح، اسمهم وسطاء تجارة سلاح. أمَّا تجار الحروب ففريقٌ آخر.

تجار الحروب وتجار الدماء سواء، هم أنفسهم، هم وباءٌ مثل السِّل يسلون بالمظاهر البراقة ويسلون عافية الناس بتجارتهم القذرة؛ تجارة الحروب.

الذين حولوا مأساة السُّوريين إلىٰ حقول تجارب وميادين نصب واحتيال هم تجار الدماء، هم تجار الحروب... هم مصاصي الدماء الذين يساهمون في استمرار نزيف الدم السُّوري من أجل أن يربحوا حفنة دولارات ويستمتعون بالجولات والرحلات بَيْنَ خيام تشردهم.

* * *

* * *

الفصل الخامس

ظلامية الإسلام أم ظلامية الإنسان؟

مقدمة
الإرهاب ضدَّ المسلمين هو سلوكٌ حضاريٌّ
أقليات حلال وأقليات حرام
إحياء مجازر وإماتة مجازر
تمكين المرأة
الإسلام والمسلمون وحدهم الظلاميون
خاتمة

ونحن نتحدث عن لا إنسانية الإنسان، عن انهيار هٰذا الوهم الذي شغل البشرية مئات السنين الأربعة الأخيرة لا بُدَّ من التعريج علىٰ الحرب علىٰ الإسلام التي ينكرها الكثيرون ممن يمارسونها جهاراً نهاراً وبوضوح يفقأ عين الجاحد والمنكر.

أن تكون محض حرب علىٰ الإسلام والمسلمين أمر ممكن ومقبول في إطاره العام، ولم لا؟ يمكن أن يقوم أي شخص أو دولة بمحاربة الإسلام والمسلمين. ليس الاعتراض علىٰ الحرب في حد ذاتها، ولا علىٰ الحرب من جهة المبدأ، الاعتراض هو علىٰ انعدام الوجدان وأي قيمة من قيم الحرب وأي خلق من أخلاق الحرب حَتَّىٰ بَيْنَ البشر، لأنه الحرب بَيْنَ الحيوانات موزونة ومضبوطة وقائمة علىٰ أخلاق راقية أكثر مما يتخيل البشر.

أصلا أكاد أجزم ولا أجزم بأنَّ أكثر صور انهيار إنسانية الإنسان تبدو وتظهر وتتجلى أكثر ما يكون في كل ما يخص الإسلام والمسلمين... فقط وتقريباً فقط عندما يتصل الأمر بالإسلام والمسلمين تنهار الأعصاب وتتوتر النفوس وتضيع البوصلات وتنهار الموازيين وتنعدم القيم وتتلاشى الأخلاق... إلىٰ درجة مدهشة إدهاشاً يجعلك لا تصدق أنَّ ما يحدث يحدث فعلاً... تضرب رأسك بالحيطان مرتين وأكثر لتقتنع أنَّ ما تراه وقع فعلاً ويقع.

مادة هٰذا الفصل أكثرها مجتزآت من كتابي العالم في مواجهة الإسلام الصادر في عام ٢٠١٤م، وفي الكتاب مزيد من المآسي من هٰذا القبيل، وإلىٰ جانب هٰذا الكتاب كان كتاباي الصادران في العام ذاته أيضاً وهما الحرب علىٰ الدولة الإسلامية ومخاطر نجاح الإسلام في السلطة.

الإرهاب ضدَّ المسلمين هو سلوكٌ حضاريٌّ

عندما انهار الاتحاد السوفيتي انفصلت كل الدول عن بعضها وعن الاتحاد السوفيتي بهدوءٍ ومن دون مشكلات ومن دون إراقة نقطة دمٍ واحدةٍ... فقط عندما أعلنت البوسنة والهرسك المسلمة استقلالها، في الفترة ذاتها تماماً، انهالت عليها القذائف والحمم وارتكبت فيها أبشع المجازر التي يندى لها جبين البشرية... ولم يسمح لها بالاستقلال إلا ضمن الشُّروط الأوروبية التي تلغي كينونتها الإسلامية ويضحمل فيها الحضور الإسلامي.

استقلت كل الدول عن الاتحاد السوفيتي والشيشان المسلمة وحدها فقط لم يسمح لها بالاستقلال، وارتكب الروس فيها مجازر إبادة شاملة لا يدري أحد عنها شيئاً... ولم تزل مستعمرة روسية[٣٢]...

الحقيقة المرة التي لا تجد تفسيرا أبداً هو التركيز علىٰ فكرة واحدة واعدها مسلمة والتعامل معها علىٰ أنَّها مسلمة، وتكيسها مسلمة في الفكر البشري علىٰ

---

(٣٢) . قد يعترض معترض بأن دولاً إسلامية مثل أوزبكستان وطاجكستان ومابعرفشوكمان استقلت عن الاتحاد السوفييتي بهدوء... الحقيقة خلاف ذٰلكَ تماماً، لم تحظ باستقلالها إلا بضمانات بقائها تحت سيطرة الفكر الشيوعي، الإلحادي يعني، وبقائها تحت السيطرة الروسية... كلها لم تزل تحت سيطرة الشيوعية وروسيا معاً. علىٰ الرَّغْمِ من انهيار الشيوعية في العالم كله بقيت الدول المسلمة وحدها شيوعيَّة.

مدار الأرض وهي أنَّ الإرهاب ضدَّ المسلمين هو سلوكٌ حضاريٌّ، وفي الوقت ذاته مساعدة المسلمين بأيِّ شيءٍ هو سلوك إرهابيٌّ.

لا حظوا مثلاً: أكثر من سبعمئة شاب فرنسيٍّ أعمارهم ما بَيْنَ ١٦و١٨ سنة يلتحقون للقتال مع الجيش الصِّهيوني وارتكاب مجازر في غزة.

لا أحد في العالم انشغل باله بهم!!!

ولا أحد في العالم سأل عنهم أو سألهم لماذا!!

ولا أحد في العالم خاف عليهم، ولا خاف من إرهابهم بحقِّ الفلسطينيين.

ولا أحد في العالم خاف من عودتهم إلىٰ بلادهم بعد انتهاء الحرب!!!

بينما مثلهم من الفرنسيين جاء إلىٰ سوريا دعماً للثَّورة فضاج العالم كلُّه، ضاجت أروقة السِّياسة والإعلام ومراكز الأبحاث وانعقدت الندوات والمؤتمرات وحلقات الأبحاث... لبحث هٰذه الظَّاهرة وتداعياتها ومخاطرها ومراشحها ومشاحرها، وكيف سيعودون إلىٰ بلادهم، وماذا سيفعلون عندما يعودون، ماذا لن يفعلوا عندما يعودون، أو لا يعودون... وصدرت قوانين الإرهاب وقوانين الحليولة دون تهريبهم إلىٰ سوريا والعراق...

وماذا يمكن أن نقول عن تأييد غالبية الأمريكيين للمجزرة الإسرائيليَّة في غزة؟

هل يمكن أن نسمِّي ذٰلكَ رحمة أم إنسانيَّة مثلاً؟

لماذا لا يقولون: إنَّ هٰذا تطرف؟

لماذا لا يدرسون هٰذه الظَّاهرة علىٰ أنَّها شاذَّةٌ أو خاطئةٌ ما زالوا يحاسبون العرب والمسلمين كلهم لغلطة واحدٍ أو عددٍ قليلٍ من الأشخاص، ورُبَّما يكون عالم المخابرات الغربيَّة هو الذي سخرهم واستخدمهم؟؟

لن نخوض غمار تفاصيل لا تكفيها دفاتر ولا كتب، وكتبنا عن أمثالها غير مرَّةٍ وكتب الكثيرون في ذَلكَ. ولٰكن نحن الآن في قلب وجع نقرأ بعض مظاهرة. تلك المظاهر التي تؤكِّد ما يسمَّى الازدواجيَّة العمياء الرَّعناء، بل إنها أكثر من ازدواجية إنها وقاحة لا حدود لها، وقاحة تنبي عن انعدام الوجدان انعداماً مطلقاً بقرار وتصميم مدروس، وهٰذا أبشع من انهيار إنسانية الإنسان بسبب غباء أو جهل أو تقصير. كلُّ ما يقود إلىٰ قتل المسلم أو يقتله فعلاً فهو بطولةٌ وإنجازٌ حضاريٌّ. وكل ما يفعله المسلم حَتَّىٰ ولو كان حضارياً فهو إرهاب. الإسلام هو الإرهاب والمسلم هو الإرهابيُّ.

ألماني اعتنق الإسلام، رأى ظاهرة شيطنة الإسلام والمسلمين، اسمه صلاح الدين بيافوجن، وقد سأله أحد ما في سجالٍ عن العلاقة بَيْنَ الإرهاب والإسلام فقال:

. من الذي أشعل الحرب العالميَّة الأولىٰ؟ المسلمون؟!

. من الذي أشعل الحرب العالميَّة الثَّانية ؟ المسلمون ؟!

. من الذي قام بقتل ٢٠ مليون نفسٍ بشريَّة من سكَّان أستراليا الأصليين؟! المسلمون؟!

. من الذي أرسل القنابل النَّووية لتضرب هيروشيما وناجازاكي؟ المسلمون؟!

. من الذي قام بقتل ما يزيد علىٰ الـ ١٠٠ مليون هنديٍّ من الهنود الحمر في أمريكا الشَّمالية؟ المسلمون؟!

. من الذي قام بقتل أكثر من ٥٠ مليون هنديٍّ من الهنود الحمر في أمريكا الجنوبيَّة؟ المسلمون؟!

. من الذي قام باسترقاق حوالي ١٨٠ مليون أفريقيٍّ كعبيد و قد توفي حوالي ٨٨% منهم وتَمَّ إلقاؤهم في المحيط الأطلنطي؟ المسلمون؟!

وتابع قائلاً:

لا... لم يكونوا المسلمين!!!!

ثمَّ أردف قائلاً:

قبل كلِّ ذَلكَ عليك أن تقوم بتحديد معنى الإرهاب جيِّداً؛ فلو أنَّ غير المسلم قام بفعل شيء خاطئ فإنَّما حينئذ تكون فقط جريمةً، أمَّا حين يقوم مسلمٌ بارتكاب الخطأ نفسه فإنَّهُ حينئذ يوصف بالإرهاب!!! عليك أوَّلاً ألا تكيل بمكيالين وستعرف من هم الإرهابيون الحقيقيون!!

هٰذا ما يقرِّره الإعلام الغربيُّ، وتقودوه السِّياسة الغربيَّة. نحن لا نفتري علىٰ أحدٍ ولن نفتري. هٰذه حقائق تعزُّ علىٰ الطَّعن. وحَتَّىٰ نخلص من الخبص واللبص يجب أن ننتبه دائماً إلىٰ أنَّ أيَّ حديثٍ لنا عن الدول أو حَتَّىٰ الأمم: الغرب، أمريكا، أوروبا وأي دولة أُخْرَىٰ... فإنَّ المقصود هو أنظمة هٰذه الأمم والدول وليس الشُّعوب... مهما كانت طبيعة هٰذه الشُّعوب وأخلاقها وتصوراتها...

أقليات حلال وأقليات حرام

في السياق السابق ذاته وجدنا أنفسنا اليوم، في القرن الحادي والعشرين أمام بشاعات لا تحتمل ولا تطاق ولا تُصَدَّقُ بحال من الأحوال إلا في سياق انهيار إنسانية الإنسان بقرار وتصميم منه، والكشف عن حقيقة الإنسان البشعة التي تتبرأ الحيوانات منها.

كلُّ النَّاس المتحضِّرين يصرخون بقوَّةٍ اليوم:

تهجير الأقليات المسيحية جريمة كبرىٰ...

تهجير الأقليات الأيزيدية جريمة كبرىٰ...

يجب حماية الأقليات الأيزيدية...

يجب حماية الأقليَّة المسيحيَّة في سوريا...

يجب حماية الأقليَّة المسيحيَّة في العراق...

يجب تقديم ضمانات للأقليَّات في سوريا...

يجب دعم الأقليَّة الكرديَّة في سوريا لتحمي نفسها...

لا يجوز السُّكوت علىٰ ما يحدث للأقليَّة الكرديَّة في العراق...

هٰذا كلُّه هو الكلام الحضاري الرَّاقي المفعم بالإنسانيَّة. أمَّا قيام الأقليَّة أيُّ أقليَّةٍ بإبادة أكثريَّة مسلمة، بذبح مئات ألوف المسلمين، وتشريد ملايين المسلمين، وتدمير منازل ملايين المسلمين، وتدمير آلاف مساجد المسلمين... فهذا سلوكٌ حضاريٌّ لا يجوز الاعتراض عليه... ومن يعترض عليه فهو متخلِّف ورجعيٌّ وانتهازيٌّ يجب أن يحجر عليه...

ولٰكن، ومع ذٰلكَ، هناك تناقض فاضحٌ في الاستنفار لحماية الأقليات... وسؤالٌ يظهر فوق كلِّ الرُّؤوس بقوَّة:

هل هناك أقليَّات محدَّدة هي التي يجب حمايتها أم يجب حماية أيِّ أقليَّة؟

فلقد تعرَّضت أقليَّة مسلمي الروهينچيا لمجازر لا يمكن أن تصدَّق من شدَّةِ وحشيتها ولم يتحرَّك هٰذا الضَّمير الأقلياتوي علىٰ الرَّغْمِ من أنَّها تفوق وحشية كل ما مارسه النظام السوري وكل ما مارسه مسلم (سنيٌّ) فرد أو مجموعة أو جماعة أو تنظيم!!!

لقد تعرَّضت أقليَّة مسلمي أفريقيا الوسطى لمجازر وحشيَّة مماثلةٍ لمذابح الروهينجيا وأيضاً لم يتحرَّك الضَّمير الأقلياتويُّ أيضاً علىٰ الرَّغْمِ من أنَّها تفوق وحشية كل ما مارسه النظام السوري وكل ما مارسه مسلم (سنيٌّ) فرد أو مجموعة أو جماعة أو تنظيم!!!؟

ومثل ذَلكَ حَدَثَ في العراق للمسلمين الأقلية وفق معاييرهم علىٰ يد النِّظام الشِّيعي أو الشِّيعة قولوا ما شئتم، وقد قال أوباما: «السُّنَّة أقلية في العراق»... ومع ذَلكَ لم يتحرَّك ضمير أوباما الأقلياتويُّ ولا ضمير غيره لنجدتهم أو حمايتهم!!!

كما أنَّ من الغباء محاولة برهان المبرهن، أو محاولة إثبات المثبت فإنَّ من أشدِّ الحماقات محاولة توضيح الواضحات.

هل بعد ذَلكَ وضوح؟

وبعد ذَلكَ كله يريدون من المسلمين أن يقولوا: سمعنا وأطعنا... يريدون أن لا يكون لهم أي رد فعل!!!

إحياء مجازر وإماتة مجازر

البشرية عمياء حقًّا، منذ أكثر من عشر سنوات كتبت مقالاً بعنوان: «إحياء مجازر ميتة وإماتة مجازر حية» تعقيباً علىٰ بوادر تصعيد حملة إحياء ما يسمى مجازر الأرمن ومطالبة الأتراك بالاعتذار. واليوم أعيد طرح السؤل:

أليست البشرية أقذر مما يحتمل؟

أيعقل التطبيل والتزمير لمجازر مضى عليها مئة سنة وأكثر، وغض الطرف عن مجازر أبشع منها بألف ورُبَّما ألف ألف مرَّة تقع اليوم أمام أعيننا؟

لا أدعي علماً بما حدث، المنطق يوجب عليَّ الوقوف علىٰ الحياد إذن، والحياد يقتضي منِّي أن أسأل:

هل مجازر الأرمن هي الحقيقة الوحيدة؟

أم ثَمَّة قصص وراءها؟

لماذا نصدق فريقاً واحداً ولا نصدق الفريق الآخر؟

ألا يوجد أكثر من رواية عن هٰذه المرحلة وما فيها؟

قرأنا أكثر من رواية ولٰكنَّ الأكثرية القطيعيَّة لا تريد التَّركيز إلا علىٰ وجهٍ واحدٍ.

أنا لا أمنع الأرمن من التفكير في ما جرى لهم، ولا أستنكر عليهم التَّألم مما جرى، ولا طلب التعويض... ولٰكن مثلما من حقهم نكش التَّاريخ من حق غيرهم نكش التاريخ.

ومع ذٰلكَ، المشكلة ليست هنا، لننظر فيمن يثير هٰذه المسألة: فرنسا التي ارتكبت مجازر في كل الدول التي استعمرتها ومنها مجازر الجزائر. بريطانيا صاحبة التاريخ الأعرق في المجازر، الولايات المتحدة التي لا تضاهى في المجازر أبداً... كيف يرون شبهة مجزرة ويقيمون الدنيا حولها ولا يرون مجازرهم التي لا شكَّ فيها؟

دعك منهم، لنسأل المطبلين والمزمرين من وراءهم الذين يجيشون ضد تركيا ولا يجيشون ضد أمريكا وفرنسا وبريطانيا:

تسعون سنة من حكم العسكر تركيا بقبضة حديدية...

تسعون سنة من الطلاق بَيْنَ تركيا والعرب ومعانقة إسرائيل...

تسعون سنة لم يرتفع صوتٌ واحدٌ في العالم والعالم العربي للحديث عن مجازر الأرمن...

فقط عندما نجح حزب العدالة والتنمية الإسلامي في السُّلطة في تركيا ارتفعت الأصوات الغربيَّة وتلتها في الآونة الأخيرة الأصوات العربية المتعاطفة مع الأرمن، وإحياء السنوية، ومطالبة تركيا بالاعتذار، والتعويض، والركوع أمام الأرمن!!!

إنها حلقة من سلسلة ما انهيار إنسانية الإنسان. حلقة من حلقات قد تمتد أكثر مما تتخيلون لأننا لم نعد إلىٰ مجازر الغرب الكثيرة البشعة بشاعة يتبرأ إبليس منها، في حين لم يجدوا من المسلمين إلا معاملة أقل ما يقال فيها إنها راقية محترمة أجبرت مفكرين أوربيين مسيحيين علىٰ القول: «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من المسلمين».

تمكين المرأة

وفي حلقة من نوع آخر في هٰذا الإطار تقفز أمامنا مشكلة الهاجس الهلوسي الغربي في تمكين المرأة العربية وتمكين المرأة المسلمة.

منذ عقود ولا هم للمجتمع الدولي إلاَّ تمكين المرأة العربية. حَتَّىٰ هٰذه اللحظة كان تمكين المرأة العربيَّة جزءاً من الهمِّ الأمريكيِّ والدولي في خطاب أوباما، وفي خطابات الغرب جميعاً!!!

لماذا تمكين المرأة العربيَّة دون غيرها من نساء الأرض؟

هٰذا يطرح تساؤلات واستغرابات كثيرة جدًّا:

هل نستطيع أن نفهم أنَّ المرأة الأوروبيَّة (ماكنة) جدًّا مثلاً، وهل المرأة الأمريكيَّة (ماكنة) بما يكفي أيضاً؟

هل المرأة العربيَّة وحدها من فصيلة الرَّخويات أو الكائنات السيتوبلازمية وبحاجة إلىٰ شدٍّ مفاصل وتمكين، ولا همَّ للمجتمع الدَّولي برأسه الأمريكي ومؤسَّساته الأمميَّة إلا تمكين المرأة العربيَّة، ولا شغل لهم إلا هٰذا الشَّاغل؟

وهل يعني هٰذا أنَّ الرَّجل العربيَّ ماكنٌ بما يكفي ولا يحتاج إلىٰ تمكين؟

وهل يعني أنَّ الاقتصاد العربي يفظِّع في النَّجاح والتَّقدم وليس بحاجة إلىٰ تمكين؟

التعليم، الإعلام، الحريات، العدالة... كلها لا ينقصها إلا خرزة زرقاء علىٰ صدرها، والمرأة العربيَّة وحدها الجزء الرَّخوي الذي يحتاج إلىٰ تمكين؟

من الطَّبيعي أن يوجد من يعترض ويقول: هم يقصدون الإفساح في المجال أمامها للعمل السِّياسي والعام.

قام الدب ليرقص. هٰذا صحيحٌ. هم يريدون ذٰلكَ. بل إنَّهُم يفرضون بطريقة أو بأُخْرَىٰ أن يكون لها حصَّة في المجالس النيابيَّة، والسِّياسية والوزارات، والمجالس المنتخبة وغير ذٰلكَ.

حسناً. أنا أريد أن أسأل هنا: كم وزيرة توجد في أيِّ دولةٍ أوروبيَّة أو أمريكيَّة؟

كم (عضوة) برلمان في أيِّ دولة أوروبيَّة أو أمريكيَّة؟

وأضيف للمقارنة هل توجد في أيِّ دولةٍ منها نسبة أكبر من نسب وجود المرأة في كثير من الدول العربيَّة؟

وليس هٰذا فحسب، بل لا بُدَّ أن أتساءل: لماذا في دولنا العربيَّة فقط يجب أن تفرض لها حصَّةٌ فرضاً، ولا توجد في دولةٍ أوروبيَّة أو أمريكيَّة واحدةٌ مثل هٰذه المحاصصة؟ هل هٰذه هي الديمقراطيَّة؟ لماذا يكون لهم ديمقراطية حرَّة وتكون لدينا ديمقراطية توافقيَّة وتحاصصية في المرأة وغيرها؟

المرأة العربية في مصر تنتهك.

المرأة العربية في الصومال تموت جوعاً.

المرأة العربية في سوريا تغتصب أبشع اغتصاب.

المرأة العربية في العراق رهينة المعتقلات والاغتصاب.

ووسط ذٰلكَ كله لا ينشغل الغرب إلا بالمرأة السُّعودية التي لا تقود السِّيارة. الغرب منشغل أكبر انشغال بمنع المرأة السعودية من قيادة السِّيارة ويرى ذٰلكَ انتهاكاً للحقوق والحريات!!! أما ما يحدث للمرأة في مصر والعراق وسوريا والصومال فلا أحد يراه، ولا أحد يريد أن يراه!!! لماذا؟

الإسلام والمسلمون وحدهم الظلاميون

منذ وعيت علىٰ الدنيا وإلىٰ اليوم لم أجد أحداً أو فريقاً يوصف بالظلاميَّة إلا المسلم الذي يدافع عن الإسلام. وعندما أقول الإسلام فأنا أعني السُّنة، السُّنة ليست طائفةً، السُّنة ليست مذهباً، السُّنَّة هي الإسلام، هي الأمَّة الإسلاميَّة.

حَتَّىٰ غير المسلم مهما كان دينه أو لا دينه إن دافع عن الإسلام فهو موضوعيٌّ وعقلانيٌّ وعلميٌّ وراقٍ وحبَّاب ومحترمٌ. فقط المسلم الذي يدافع عن الإسلام هو الظلاميُّ.

ومن طريف التَّناقضات هنا أنَّ المسلم وغير المسلم من أيِّ دينٍ أو لا دينٍ إذا هاجم الإسلام بأيِّ طريقةٍ من الطُّرق فهو يمارس حريته، وهو شجاعٌ، وهو موضوعيٌّ، وهو نبراس الوعي والنضج... هو كذلكَ مهما كانت طريقة الهجوم؛ مؤدَّبة، غير مؤدبة، فيها إساءة، فيها تشويه، فيها تحريف، فيها تخريف... لا يهم، المهم أنت تحوز أوسمة الشَّجاعة والبطولة والنبل وتعتلي المحافل الدولية ويُفرش لك السجاد الأحمر عندما تهاجم الإسلام.

المفارقة المضحكة المبكية هنا هي أنَّ غير المسلم من أيِّ دينٍ أو لا دينٍ إن دافع عن الإسلام فهو بطل ونبيل وعلمي وعقلاني... وإذا هاجم الإسلام فهو أيضاً بطل ونبيل وعلميٌّ وعقلانيٌّ... أمَّا المسلم فهو بطلٌ ونبيلٌ وعلميٌّ وعقلانيٌّ... فقط إذا هاجم الإسلام أمَّا إذا دافع المسلم عن الإسلام فهو ظلامي. بل ويا للغرابة والدهشة عندما تجد العالم يشيد براجحة عقل أحدهم وأهميته وعظمته وفجأة من دون مقدمات يصير مجنوناً، مخرِّفا، فقد عقله... فقط إذا تحول إلىٰ الدفاع عن الإسلام بعد أن كان يهاجمه.

في المقابل، المسيحية قبل الإسلام، وعدد المسيحيين أكثر من عدد المسلمين، وهناك مسيحيون يدافعون عن المسيحيَّة بشدَّة، وبتعصُّبٍ، وبتطرُّف، ومع ذلكَ لم أجد عَبْرَ عشرات السِّنين من يصف هؤلاء بالظلاميين!!!

اليهودية قبل المسيحيَّة وقبل الإسلام، وبالقياس اليهودية أقليَّة في ميزان الأكثريات الدِّينية والعرقيَّة. وفيها متطرفون يفوقون تطرف المسلمين والمسيحيين،

ومع ذلكَ لم أجد أبداً عَبْرَ ما مضى من عشرات السِّنين من يصفهم بالظلاميين!!!

الهندوسيَّة، والبوذيَّة المنبثقة عنها اللتان تسبقان هٰذه الأديان الثَّلاث بمئات السِّنين، وعدد معتنقيها يساوي كلاً من الدِّيانتين علىٰ حدةٍ، وهي بمنزلة الديانة الوثنيَّة مقارنة مع الأديان السماويَّة، فيها من المتطرفين أيضاً ما لا يقلُّ عن تطرف المسلمين واليهود والمسيحيين. ومع ذلكَ لا توجد أيُّ إشارةٍ أو كلامٍ أو تصريحٍ أو تلميحٍ إلىٰ ظلاميَّةٍ هندوسيَّةٍ أو بوذيَّةٍ!!!

حسناً، حَتَّىٰ في العقائد الإلحاديَّة بمختلف أنواعها يوجد متطرفون يفوقون بتطرُّفهم تطرُّف مترفي الأديان السَّماوية والوضعية والوثنية... والعقائد الوثنيَّة فيها كذلكَ متطرفون... ومع ذلكَ لم نجد أبداً من تحدَّث في يومٍ من الأيَّام عن الظلاميَّة الشِّيوعيَّة أو غيرها!!

لماذا المسلمون حصراً هم الظلاميون؟

إذا كان الموضوع موضوع تطرُّف فقد وجدنا أنَّ الجميع علىٰ الأقل متطرفون مثل المتطرفين المسلمين، فلماذا المسلمون وحدهم ظلاميون، والآخرون يمارسون حريتهم، وليسوا ظلاميين؟

بل أقول لكم، الراهبة النصرانية تلبس روب المرأة المسلمة نفسه مع الحجاب، ولٰكن في الوقت ذاته تعد الراهبة مثال الطهر والقداسة والأناقة والرحمانية والروحانية، وتعد المرأة المسلمة متخلفة وظلامية وجاهلة!!! هٰذه وحدها من أشهد المفارقات التي يجب الوقوف عندها.

ومثل ذَلكَ تلبس المرأة اليهودية المتدينة لباس المرأة المسلمة نفسه مع النقاب أي تغطية الوجه كاملاً، ومع ذَلكَ لا أحد يقول شيئاً عن المرأة اليهودية هٰذا فيما تحارب المرأة المسلمة في كل مكان بما فيها بلاد الإسلام!!!

ومثل ذَلكَ اللحية: لحية رجل الدين المسيحي واليهودي والبوذي والملحد... كلها وقار وهيبة وجمال... ولحية المسلم وحده عار وشنار وعيب وتخلف وظلامية ورجعية!!! لماذا؟!!

سيقول قائل: رُبَّما لأنَّ المسلمين ينادون أو يريدون العودة إلىٰ زمن الرسول أو يريدون تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة!!! عجباً، وهل المتطرفون في الأديان الأُخْرَىٰ ينادون بخلاف ذَلكَ؟ الأولى إذن أن منتسبي الأديان الأُخْرَىٰ هم من يجب أن يوصفوا بالظلاميين لأنَّ الإسلام أحدث هٰذه الأديان، أولئك يغرقون أكثر في الماضي! هٰذا مع تذكُّر أن الاتهام يوجه لكلِّ مسلمٍ ملتزم، وليس فقط للمتطرِّف المسلم، فيما نحن نتحدث عن متطرِّفي الأديان الأُخْرَىٰ لا عن الملتزمين دينيًّا فيها.

إذن لماذا المسلمون حصراً هم الظلاميون؟

أرجو أن لا نخلط بَيْنَ الظلاميَّة والإرهاب، تهمة الإرهاب ناقشناها في مقال آخر ضمن سياق هٰذا العنوان ذاته. فالإرهاب مرتبطٌ بالوحشيَّة والدَّموية وقد بيَّنا في مقال خاصٍّ بالموضوع ما بيناه. الظَّلاميَّة تهمةٌ تنصب علىٰ العقليَّة. ونحاول أن نعرف لماذا عقليَّة المسلم إذا التزم بدينه كانت ظلاميَّةً، بَيْنَما عقليَّة أيِّ ملتزمٍ بدينه من الأديان الأُخْرَىٰ لا تكون ظلاميَّة!! لماذا فقط المسلم إذا دافع عن دينه يكون ظلاميًّا، ولا يكون غير المسلم ظلاميًّا إذا دافع عن دينه؟!

مثل الإرهاب كلمة بلا معنى محدد، وتهمة محددة الهدف، كذلكَ الظلامية، لا نعرف ما المقصود منها، لأنَّنا علىٰ ضوء كلِّ ما تحمله من معاني نجد أنَّ الظلامية تنطبق علىٰ كل ما هو غير إسلاميٍّ أكثر مما تنطبق علىٰ الإسلامي فلماذا يسير الجميع عكس المنطق؟

ويزداد الأمر تعقيداً عندما نعلم أنَّ الاتهام مقرونٌ بالإسلامي تحديداً وليس بالاجتماعيِّ، أي ليس بعقليَّة الشَّخص الاجتماعيَّة. فلا يتهم السُّلوك بالظلاميَّة إذا لم يكن مقترناً بالدِّفاع عن الإسلام أو المناداة به.

الظلاميَّة تكريس الجهل وتكريس التَّخلف ومحاربة العلم... هل يمكن أن تتضمن غير ذلكَ؟ حسناً، قارنوا بَيْنَ الإسلام وكلِّ الأديان. أيها أكثر احتراماً للعلم ودعوة للعلم وحضًّا علىٰ العلم ومحاربة الجهل والتخلف، أيَّها أكثر حضًّا علىٰ التَّفكير، أيُّها أكثر حضًّا علىٰ عدم الاتباع الأعمى...؟؟؟ قطعاً، الإسلام علىٰ رأس الأديان التي تحترم العلم والعلماء، أكثرها دعوة وسعياً إلىٰ التَّفكير وإعمال العقل ومحاربة البدع والخرفات والأساطير والجهل والتخلف... هٰذه حقيقة باتت فوق أيِّ شكٍّ. فكيف يوصف من يدافع عن هٰذا الدين بالظلامية؟

سيقول بعضٌ: إنَّ الإسلام، أو الأديان كلها، تضع قيود على العلم والحرية... حسناً، الأديان كلها متساوية في ذلكَ، فلماذا توجه تهمة الظَّلاميَّة إلىٰ الإسلام تحديداً دون الأديان كلِّها؟!

لن يبقى السُّؤال معلقاً من دون جواب. كلٌّ لديه جوابه. ولٰكن لكلٍّ الأرضيَّة الخاصَّة به التي يقف عليها. الأرضيَّات مختلفةٌ. لا يمكن لذلك التَّفاهم.

الحوار بَيْنَ أرضيتين متخالفتين يشبه مسار مستقيمين شماليين؛ لا يلتقيان ولا يتوازيان ولا يتقاطعان.

خاتمة

أكرر ما بدأت به: حكمنا بانهيار إنسانية الإنسان من خلال هٰذه الحرب علىٰ الإسلام والمسلمين ليس بسبب الحرب بما هي حرب وإن كان في ذٰلكَ وحدة ما يستدعي مثل الحكم علىٰ أساس ديني. الحكم بانهيار إنسانية الإنسان في هٰذا الجانب ليس بسبب الحرب بما هي ولا المصالح الناجمة عن عن هٰذه الحرب، وإنما بسبب طبيعة الحرب التي عرضناً بعضاً من جوانبها وطبيعتها.

إذا كانت السياسة لا دين لها فأين البشر؟ ألا يتساءلون؟ ألا يبحثون؟ ألا يفكرون؟ أين الإنسانية التي يتشدقون بها وهم يرقصون علىٰ جثث الضحايا الأبرياء ويشربون أنخاب قتلهم وتشريدهم وتدمير بيوتهم وارتكاب المجازر البشعة بحقهم من كل نوع وشكل لون؟!

* * *

الفصل السادس

العدوان على الذات

مقدمة

الحكام يصححون الإسلام

مصر مع إسرائيل ضد غزة

مصر تخلع حجابها

خاتمة

العدوان علىٰ الذات عدوان شبه مضلل وليس مضللاً بالإطلاق فهو تعبير عن كنه الحقيقة. العدوان علىٰ الذات ذروة انهيار إنسانية الإنسان، ذروة انهيار القيم في الوجدان الإنساني... إذا كانت الازدواجية الصورة الأبرز لانهيار إنسانية الإنسان وانهيار الوجدان الإنساني فإنَّ العدوان علىٰ الذات هو الصورة لا بالكاد يمكن أن يقبل العقل المنطقي مناقشتها لأنه لا يمكنه أبداً تقبلها.

العدوان علىٰ الذات له صور وتجليات كثيرة. أتحدث عما يتجلى في أنَّهُ يفترض به أنَّهُ سلوك عدو خارجي تجاه هٰذه الذات، ولا أتحدث عن سلوكات سطحية أو هامشية أو عابرة أو غلطات أو هنات أو زلات أو ما جرى في هٰذه المجاري...

تاريخيًّا لم يعرف التاريخ أو بالكاد عرف أمة أو شعباً أو قادة مثل العربي في هٰذا العدوان علىٰ الذات، واليوم في القرن العشرين وقليل ما مر من القرن الحادي والعشرين انضم إلىٰ العرب المسلمون مثلهم في هٰذه الشائنة النادرة تاريخيًّا.

الحقيقة أنَّ الحديث هنا طويل أطول مما يتخيل القارئ أيًّا كان. نحن أمام أكوام من الموضوعات الخطيرة في هٰذا السياق. لن نتحدث عنها كلها ولا يمكننا

ذَلكَ منفردين. سنقف عند عينات قليلة، نماذج قليلة من سنة واحدة من نحو مئة سنة من عدوان الأمة علىٰ ذاتها: أشخاصاً ومجموعاً. وهي مقالات كتبت ونشرت في حينها.

الحكام يصححون الإسلام(٣٣)

لم يكن، فيما يبدو، من باب النكتة أبداً البدء بالترويج لنكتة تقول: «أنا لا أعترض علىٰ الإسلام، أنا أعترض فقط علىٰ الفهم الخاطئ للإسلام من قبل الرسول والصحابة».

لم تكن نكتة بقدر ما هي التمهيد الجدي لحملة تصحيح الإسلام التي تقودها الأنظمة العربية. الحملة ليست جديدة أبداً ولٰكن منذ أيام هلَّت البشاير من السيسي ورئيس البرلمان العراقي وبعض الغزل الصريح من قبل الأنظمة العربية الأُخْرَىٰ كلها من دون استثناء.

الأنظمة العربية كما تقول تقوم بواجبها أمام الله في تصحيح أخطاء الرسول والصحابة. بل إن السيسي أعلنها بوضوح مباشر قائلاً للشيوخ والفقهاء الذين جمعهم بأنه (سيحاجيهم) سيحاجُّهم أمام الله يوم القيامة إذا لم يقوموا بثورة في الإسلام وينقلبوا على قيم الإسلام لأنَّه دين لا يحترم الدنيا ويجب أن يصير دينا يحب الدنيا ويمجدها...

لقد اكتشف السيسي ووافقه شيوخ مصر وفقهاءها، إلا أقلهم، أن الإسلام هو سبب مشاكل البشرية بسبب النصوص المقدسة الموجودة فيه... ويجب أن ترتاح البشرية من هٰذه النصوص المقدسة، فالدين لله والوطن للجميع

(٣٣) .كتب هٰذا المقال في ٥/١/ ٢٠١٥م، ونشر في مواقع التواصل الاجتماعي حينها.

كما يردد فقهاء مصر اليوم، دفاعاً عن الثورة السيسية أو الانقلاب السيسي علىٰ الإسلام...

مدهشون الذين وقفوا مع السيسي في الانقلاب علىٰ الشرعية، ولٰكنَّ المدهشين أكثر مما نتصور هم الفقهاء الذين يؤيدون انقلابه علىٰ الإسلام.

الحقيقة هي انقلاب علىٰ الإسلام، انقلاب صريح تروج له أمريكا منذ نحو عشرين سنة بالتدريج، وصل في مرحلة من المراحل إلىٰ إصدار نسخة منقحة ومعدلة من القرآن الكريم سميت بالفرقان الحق، علىٰ اعتبار أنَّها القرآن الصحيح الحقيقي... رمت هٰذه القنبلة بهدوء توطئة لسبر موقف الشارع الإسلامي وتهيئته رويدا رويداً لهٰذه الفكرة. وها هي الأنظمة العربية تسير علىٰ هٰذا الطريق الآن بوضوح صريح... المسألة ليست مزحاً ولا مبالغة. هٰذه هي الحقيقة.

أرجو أن لا يكون الكلام مفاجئاً. أرجو أن لا يبدو الأمر مسحيلاً ولا صعباً أبداً. الأمر سهل يسير وجدًّا أيضاً حَتَّىٰ تكون المفاجأة أكبر.

تحقيق هٰذا المشروع، تعديل الإسلام وتنقيحه وتطويره لن تكون صعبة، وأقول لقد قطع الغرب شوطاً كبيراً علىٰ هٰذا السبيل. لن يكون الأمر صعباً في ظل العقلية الاجتماعية العربية الراهنة؛ عقلية تكبير الصغير وتصغير الكبير... عقلية الخبل والاستعباط والهبل.

كثيرون يستصعبون الخبل والهبل والاستعباط الغبائي. ولٰكن فيما يبدو هو سهل أكثر مما نتصور. يعني مثلاً أنزل النقطة من فوق لتحت فتصير دبابة بدل دبانة، احذف نقطة فتصير دبابة بدل ذبابة.

أرأيتم ما أسهل الأمر

يعني ولا تقرفوا مثلا: إذا أردت أن ترفع قيمة المخطة امح النقطة فتصير محطة... ولا تعجبوا من كثيرين يمدحون المخطة ويتفيئون في ظلالها علىٰ أنها محطة، وينتظرون حبيباتهم وأصحابهم في قلب هٰذه المحطة... ويريدون إقناع الناس بأنها محطة... ورُبَّما أجمل محطة.

وليكن من باب نشر الغسيل الوسخ أمام الجيران: أمتنا أيها السادة في عصرنا الراهن هٰذه هي: تبدل مواضغ النقط فقط لتكبر الصغير وتصغر الكبير، وتطول القصير وتقصر الطويل... وعلىٰ ذٰلكَ من كان صفرا يسمى صقرا، والوَحِل هو الوَجِل، والنذل هو البذل... وغير ذٰلكَ ما لا حصر له.

ولذٰلك انتقل الرعاع إلىٰ القمة ومكانهم القاع. وتصدر الأمة الجهلة الذين امتلكوا أدوات التغيير والتبديل والإقناع ولو بالقوة. وصمتت الناس علىٰ كل التجاوزات بذرائع تبدأ ولا تنتهي.

أفيصعب علىٰ من صمتوا علىٰ اللصوص والمجازر بحقهم أن يصمتوا علىٰ إصدار نسخة معدلة منقحة من الإسلام والقرآن؟

أنا لا أرى ذٰلكَ صعباً. لكم رأيكم ولي رأيي.

مصر مع إسرائيل ضد غزة(٣٤)

في الرابع من الشهر الأول من هٰذا العام كتبت تحت: «السيسي سيتوغل في ليبيا»: «بات من شبه المؤكَّد أنَّ الجيش المصري السِّيسي سيتوغَّل في ليبيا

(٣٤) .كتب هٰذا المقال في ٢/١٨/ ٢٠١٥م، ونشر في الفترة ذاتها. المقال سنب علىٰ أيام وفترة محددة وليس علىٰ امتداد الزمن الذي بدأ عبد الناصر مروراً بالسادات وحسني مبارك وفي ذٰلكَ أكوام من المقالات والأحداث.

علناً وبوضوح تحت ذرائع سيعلن عنها في وقتها... والغاية هي تحرير ليبيا من الليبيين والمسلمين وإعادتها إلىٰ سكانها الأصليين...

وإذا نجحت التَّجربة فسيكون التَّوغُّل الثاني في غزة لتحريرها من الغزاويين وإعادتها إلىٰ الفلسطينيين أو سكانها الأصليين!!! ترقبوا المرحلة القادمة».

جاء إعدام العشرين مصريًّا علىٰ يد الدولة الإسلامية في ليبيا فرجاً لا نظير له للنظام المصري ليعلن ويفاخر بقصف ليبيا. طيلة ما قبل ذَلكَ من فترة خروج حفتر إلىٰ الساحة كانت الأنباء والتسريبات والتقارير الاستخباراتية العالمية تقول بأن الطيران المصري هو الظهير الذي يسند حركات حفتر، ويضرب مواقع خصومه. وكانت مصر تنكر ذَلكَ إنكاراً تامًّا علىٰ الرَّغْمِ من وضوح الحقيقة، شأن الأنظمة العربية الأُخْرَىٰ التي تقرر أن الحليب أسود وعلىٰ الرعاع الاقتناع.

بهٰذه الخطوة صار الإعلام المصري بكل فخر واعتزاز يعيد خطاب ١٩٧٣م: قامت قواتنا الجوية الباسلة بتنفيذ حملة جوية علىٰ الأهداف المعادية في ليبيا وأصابت وأهدافها بدقة وعادت سلمة.

ركزوا معي علىٰ نفذت أهدافها بدقة وعادت سالمة. تخيلوا أن تذهب وتقصف في ليبيا ولا تعود سالمة. كم ستكون مأساة أمتنا أشنع من الشنيعة. أما أنَّها حققت أهدافها بدقة فهنا مأساة المآسي. لقد شاهد الجميع، جميع المتابعين طبعاً، أن الضحايا كلهم مدنيين، بل أكثرهم أطفال. فهل كان الأطفال هم الهدف؟ أم أن هناك كذب؟ كلُّ الأنظمة في العالم تكذب في مثل هٰذه الحالات. ولٰكنَّ المريب العجيب الغريب الذي يحتاج إلىٰ تفسير هو أنَّ قتل المصريين كان في طرابلس والثَّأر كان في درنة!!!

وفي هٰذا اليوم ذاته صرح مصدر عسكري مصري ببدء العملية البرية المصرية في ليبيا، وأسفرت العلمية حسب المصدر عن «تدمير عدد من السيارات رباعيَّة الدفع لعناصر تنظيم الدولة، وتدمير عدد من مخازن الأسلحة، وقتل وأسر العشرات منهم والقبض عليهم من جانب القوات المصرية والليبية، ورجوع القوات الخاصة بعدد من الأسرى المشتبه ضلوعهم في قتل الـ٢١ مصرياً لتحويلهم إلىٰ النيابة العسكرية، مشيرًا إلىٰ وجود عدد من الإصابات والوفيات في صفوف القوات الخاصة المصرية».

في هٰذا التصريح الكثير من الغريب المريب، فتنظيم الدولة حسب علمنا في أقصى الغرب فهل وصلت القوات المصرية إلىٰ هناك بهٰذه السرعة؟ وما هٰذه الدقة في الوصول إلىٰ مرتكبي الجريمة ومخازن التنظيم في حين أن مصر عاجزة عن معرفة ما يدور علىٰ أرضها ذاتها؟!

مهما يكن من أمر، هٰذا السلوك يضعنا أمام عشرات أنواع الاستغراب والدهشة وعشرات الأسئلة، فيما لو نظرنا إلىٰ الموضوع علىٰ أنَّ السلوك سلوك أيَّ دولةٍ بالمطلق بوصفه ردَّ فعل علىٰ مثل هٰذه الجريمة. أما إذا كان الموضوع بخصوصيته المصرية فهٰذا يضاعف أنواع الاستغراب والدهشة ويعقدها أكثر، ويزيد أيضاً التساؤلات.

لماذا؟

لأنَّ مصر تحديداً تعرضت قبل أسابيع قليلة لضربة علىٰ يد الدولة الإسلامية ذاتها في سيناء قتل فيها عشرات العسكريين بينهم ضباط كبار، ومع ذٰلكَ لم تستنفر الدول واحد بالمئة من هٰذا الاستنفار، ولم يعلن الحداد ساعة واحدة، وكأن ما كان نزهة؛ العدد أكبر، الجريمة أكبر، في قلب الأرض المصرية،

لم تلق أي رد فعل يصل إلىٰ واحد بالمئة من رد الفعل علىٰ مقتل المصريين في ليبيا!!

حسناً، سيعترض بعضهم بأن قتلهم كان في ليبيا. حسناً أيضاً، ولٰكنَّ المصيبة ستكون أكبر؛ كم مصري قتلته إسرائيل أو غير إسرائيل ولم يتحرك السيسي له، أي فقط في ظلِّ كون السيسي رئيساً ووزيراً للدفاع وقائداً لمرحلة الانقلاب الانتقاليَّة؟!

لا أريد الاسترسال في التَّساؤلات وعلامات الاستفهام والاستغراب والدهشة فإنَّها مفجعةٌ في حقيقة الأمر. وقد أثارت بعض وسائل الإعلام أبعاضاً منها. ما لم تثره وسائل الإعلام بعد هو ما توقعته منذ نحو الشَّهرين أن تكون المرحلة التَّالية هي غزو غز واستبدال سكانها بالسكان الأصليين.

صباح اليوم ٢٠١٥/٢/١٨م نشر موقع دنيا الوطن تصريح المذيع البهلواني توفيق عكاشة الذي جاء فيه حرفيًّا: «حُسم الأمر وسيضرب قطاع غزة من قِبل الجيش المصري والسيسي طلب موافقة دولية». توفيق عكاشة لا يخترع من عنده بكل تأكيد. وإشارته لٰهذه بأنَّ السيسي طلب موافقة دولية لها ما لها من أصول. وهي غير مرتبطة بما نشره موقع دنيا الوطن يوم أمس ٢٠١٥/٢/١٧م عن زيارة طوني بلير إلىٰ غزة تحت عنوان: «رسالة بلير الأخيرة وضربةٌ مصريَّةٌ لغزة». وفيه تأكيد أنَّ «التسخين الاعلامي المصري بضرورة ضرب مواقع حركة حماس في قطاع غزة لم يأت مصادفةً ولا من بنات أفكار المذيع أحمد موسى أو توفيق عكاشة، وإنَّمَا بدأ تحضير الداخل المصري وتسخين لتقبل إمكانيَّة ضرب غزة انتقاماً لأيِّ عمليَّة داعشيَّة قادمة...»، مثل لٰهذه الهجمات اعتاد النِّظام المصري علىٰ اتهام حماس بها منذ أول الانقلاب إلىٰ اليوم من دون

أي دليل، ولذلك لن يحتاج النِّظام المصريُّ إلىٰ جهدٍ كبيرٍ لإيجاد المسوِّغ الذي يسمح له بقصف غزة وإحلال العدالة والديمقراطية وتخليص غزة من الإرهابيين الغزاويين المدسوسين وإعادتها لأهلها غير المدسوسين.

معادلات هٰذا العصر كلها من هٰذه الطبيعة الخرندعية التي ترهق العقل والوجدان، ترهق الإنسان بما هو إنسان. ولذلك إذا نظرنا في الإنذار الأخير الذي وجهه غورو العصر طوني بلير لحماس لن نفاجئ من سرياليته. فهو اشترط شرطين، هما ما ظهر، لفك الحصار عن غزة وجعل حماس تعيش علىٰ الكاجو والحلاوة بسمسمية:

الشرط الأول: أن تتعهد حماس بعد التدخل في الشؤون المصرية. علىٰ أساس أنَّ حماس، التي هي أقل من واحد بالخمسة ملايين من مصر، هي التي تخرب مصر، وهي التي تقوم بالمظاهرات وهي التي تقتل المتظاهرين وهي التي تقوم بالتفجيرات والمواجهات وتعطيل النيل سات!!! علىٰ الرَّغْمِ من عدم وجود دليل واحد علىٰ ضلوعها بشيء مما يحدث في مصر ،اغض النظر عن فضائح الفبركات التي حصلت. وهٰذا التعهد يكفي وحده إدانة حماس بلسانها، وإدانة حماس بلسانها يعني وضعها أمام المساءلة شاء من شاء وأبى من أبى، ولا قيمة لطوني بلير ووعده في القصاص. وهٰذا وحد ما يكفي في نظر إعلام السيسي لإعطاء النظام شرعية لم يحظ بها في الوجود وفي محاربة الإرهاب المحتمل وتبرئة ذاته مما سبق أن حصل.

الشَّرط الثَّاني: الإعلان رسميًّا عن أنَّ حركة حماس ليست ذات امتدادٍ إسلاميٍّ خارجيٍّ. هٰذا الشَّرط مما يسمَّى المضحكات المبكيات، فلا تدري كيف تفهمه ولا كيف تناقشه ولا كيف تهضمه. فسَّره بعضهم بأنَّ المقصود حركة

الأخوان المسلمين. إذن كان الأمر كذلكَ فلا بأس، وإن علىٰ مضض. ولٰكن ما يدريني أن يخرج بلير عند أيِّ اتصالٍ مع أيِّ دولةٍ بأنَّهُ علاقةٌ إسلاميَّة خارجيَّة؟! ومع ذٰلكَ لا يمكن إلا أن ينفر الدَّم من عروقك توتراً وتشنجاً مما لا يقبله منطق: لماذا علىٰ حركة إسلامية أن لا تكون ذات صلة مع أي امتداد إسلامي في الخارج؟ لماذا يجب أن تفتح علاقاتها مع كل غير المسلمين ويحرم عليها أن تتصل مع مسلمين؟ ولماذا عليها هي ذٰلكَ وليس علىٰ أيٍّ غيرها من أديان العالم؟

أشارت بعض التَّحليلات إلىٰ أنَّ الإنذار الأخير هٰذا لا بُدَّ أن يكون مشفوعاً بتهديدٍ من نوع ما. هٰذا هو المنطق. والمنطق يقول أيضاً إنَّها ليست أول التَّهديدات ولن تكون آخرها مهما كانت استجابة حماس للشروط. لأنَّ هٰذه الشُّروط في صورتها المعلنة أقلٍ بكثيرٍ جدًّا من المطلوب الحقيقي من حماس.

ويبقىٰ السؤال: هل ستقوم مصر باجتياح غزة وتغيير سلطتها علىٰ غرار ما فعله جورج بوش في العراق؟

الحقيقة التي يجب أن تكون واضحةً هي أنَّ المعطيات الدوليَّة والإقليميَّة تقول إنَّ ذٰلكَ ممكنٌ جدًّا، بل تكاد تدفع إلىٰ ذٰلكَ دفعاً، واحتمال قيام السيسي بذٰلكَ كبير جدًّا لأنَّهُ هو شخصيًّا بحاجةٍ إلىٰ مثل هٰذا الاستعراض والضَّمان لنفسه بوصفه ورقة اعتماد عند الأمريكان. ناهيكم عن أنَّ جاهزية السيسي لذٰلك هي غاية ما ترجوه أمريكا للقيام بما تريد بأيدي غيرها، كما تفعل في محاربة الدولة الإسلامية بأيدي المسلمين، ولو في الظَّاهر، لأن إيران رأس حربة والأمريكان والبرطانيين والفرنسيين وغيرهم موجودون علىٰ أرض المعركة.

والسُّؤال الذي سيظهر قبل أن يفعل ذٰلكَ وبعد أن يفعله إذا فعله: والنتيجة؟

النَّتيجة لن تكون جيِّدةً أبداً. من بداهات الحياة أنَّهُ بإمكانك أن تبدأ الحرب متىٰ شئت، ولٰكنَّ ليس بإمكانك أن تنهيها متىٰ شئت. والظروف الجديدة ستفرز معطيات جديدة لم تكن في الحسبان ولن تكون مرضيةً أبداً. تذكروا أنَّ ما حدث في سوريا من تطورات مأساويَّة معقَّدة كان نتيجة دفع الأمور إلىٰ الأمام بتوقُّعات معيَّنة، ولٰكنَّ الذي حدث هو ما كان يهرب منه المجتمع الدولي بدفع الأمور إلىٰ الأمام.

بعد تمام الشهر من هٰذا نشر هٰذا المقال، وتماماً في ٢٠١٥/٣/١٩م نشرت صحيفة إيطالية لقاءً مع السيسي قال فيه بالحرف إِنَّهُ «مستعدٌّ لإرسال الجيش المصري إلىٰ إسرائيل لمكافحة الإرهاب»، طبعاً صار شبه متوافق عليه عالميًّا أنَّ الإرهاب هو الإسلام، والإسلام هو الإرهاب. أي إن السيسي يريد إرسال الجيش المصري إلىٰ إسرائيل لمكافحة الفلسطينيين. وكان قبل يوم من ذٰلكَ قد وقع نهاية اتفاقية شراء الغاز من إسرائيل بسعر السوق، بعدما كانت إسرائيل تشتري الغاز المصري بأقل بأربعة أضعاف من سعر تكلفة الإنتاج.

العجب يتكسر رأسه لأنه يبدو أكثر واقعيَّة أمام ما يحدث.

مصر تخلع حجابها[٣٥]

في خطوة بمنتهى الجرأة والوقاحة نظام السيسي يقدم علىٰ التحضير لمحاربة الحجاب، الحجاب لا النقاب. الأمر يبدأ بالتمهيدات المعتادة من تعليقات أو نكت علىٰ ألسنة محدة، ثمَّ علىٰ التحريض علىٰ أيدي فريق إعلامي ثمَّ إهمال الموضوع نسبيًّا علىٰ ضوء ردود الفعل ولأغراض مخابراتية، ثمَّ يعود الموضوع فجأة

(٣٥) .كتب هٰذا المقال في الأصل مجموعات تعليقات قصيرة نشرت متتالية علىٰ صفحتي في الفيسبوك في ٢٠١٥/٤/١٦م، ونشر مجموعا في الفترة ذاتها.

بعد شهور علىٰ هيئة قرار أو سلوك في مؤسسة من المؤسسات غالباً ما تكون المدارس أو الجامعات.

السيسي لا يحارب الحجاب بل يريد رسميًّا منع الحجاب بحملة تحقير وتشويه وتحريض وما شابه ذَلكَ. بدأت الحفلة بالدعوة علىٰ منابر الإعلام السيسي إلىٰ مظاهرة مليونية في مصر لخلع الحجاب.

أكرر الحجاب وليس النقاب... وبكرة ح تشووووفوا مسر

السيسي: أتحفنا بأعجب العجائب وسيتحفنا كل يوم بالمزيد

من أجل إغاظة الأخوان المسلمين، فيما يبدو ظاهراً، السيسي فرض مليونية اخلعي حجابك. وطالما أنَّ الأمر علىٰ هٰذا النحو التافه والسطحي، وله خلفه ما له علىٰ أي حال، فإنَّهُ قريبا حَتَّىٰ يغيظ الأخوان المسلمين سيشن حملة الزنا واجب وطني... ومثله يفعلها.

عبر تاريخ الإسلام كله لم يتجرأ أحد أو حاكم تحديداً علىٰ الإسلام مثلما تجرأ السيسي، لا حاكم مسلم ولا حاكم عدو للإسلام. السيسي تمادى تمادياً غير مسبوق علىٰ الإسلام وإذا ترك فإنَّ في جعبته الكثير مما تشيب لهوله الولدان، حسبك أنَّهُ قال في أول خطاب له بعد الانقلاب: «كل حاجة ما ترضيش ربنا نحن سنؤيدها وندعمها». قال جهاراً نهاراً ولم يعتر ولم يصحح ولم يصدر عنه أي تنصل من القصد.

إذن كل من يقول إن هٰذه الحملة ليست قراره الشخصي فهو واهم واخم واخد براشم.

السيسي وأنصاره ولا نصفهم أي وصف يزعمون أنَّ ذَلكَ من باب الديمقراطية. حسناً:

من باب الديمقراطية يا سي سي سي: هل يمكن تسمح بمليونية (ارتدي الحجاب يا سافرة)؟

من يسمح بمليونية اخلعي الحجاب يجب أن يسمح بمليونية ارتدي الحجاب.

هنا تبرز الحقيقة التي نكاد نعجز عن وصفها.

علق الساخرون قائلين: إنَّ شيخ الأزهر يحذر أي فتاة من خلع الحجاب قبل يوم الجمعة حَتَّىٰ لا تخسر ثواب الجماعة.

هٰذا لأن شيخ الأزهر، إن كان شيخاً أو مسلماً، أفتى بكثير مما يشوه الإسلام ويحارب الإسلام وأمام مليونية خلع الحجاب تجحب عن الكلام.

في هٰذا السياق نتساءل: يا ترى كيف ستغطي القنوات السعودية وعلى رأسها العربية مليونية اخلعي حجابك أيتها المسلمة؟

من أراد أن يعيش حريته الدينية فعليه الذهاب إلى بلاد الكفر

في بلاد الكفر الحرية الدينية مضمونة أكثر من أي بلد مسلم

خاتمة

عوداً علىٰ بدء، العدوان علىٰ الذات ذروة انهيار إنسانية الإنسان، ذروة انهيار القيم في الوجدان الإنساني... إذا كانت الازدواجية الصورة الأبرز لانهيار إنسانية الإنسان وانهيار الوجدان الإنساني فإنَّ العدوان علىٰ الذات هو الصورة لا بالكاد يمكن أن يقبل العقل المنطقي مناقشتها لأنه لا يمكنه أبداً تقبلها.

إذا كنا بالكاد نجد غير أو مثل العرب والمسلمين في عدوانهم علىٰ قيمهم وكرامتهم وهويتهم وتاريخهم وثقافتهم... فإننا لا نعدم أن نجد أمثلة أُخْرَىٰ،

ولكننا لا نبحث عن مثل ذَلكَ، نحن أما الظاهرة العربية التي تكاد تكون منقطعة النظير، وتحير العقول.

بل الأدهى من ذَلكَ، كما أشرنا بداية أنن لا نستعرض كل ما ينطوي أو يندرج تحت هٰذا الباب من السلوك العربي الرسمي والشعبي وحَتَّىٰ علىٰ مستوى التخب الثقافية والفكرية فإنَّ ذَلكَ في القرن العشرين فيض يتدفق أنهاراً. ومن ثمَّ فإنَّ ما وقفنا عنده ليس إلا نتف مما عشناها ونعيشها في ظل إعداد هٰذا الكتاب للطباعة.

* * *

* * *

خاتمة الكتاب

البشرية في القرن الحادي والعشرين ترتكب أبشع المجازر وأشنعها عبر تاريخ البشرية بالمطلق.

القرن الحادي والعشرون الذي تفجرت فيه طاقات العلم والمعرفة والتواصل تفجراً يكاد يكون السقف الأعلى لهذه المجالات، وهو خلاصة تاريخ البشرية عبر آلاف السنين بتراكماتها الأخلاقية والأدبية... القرن الحادي والعشرون الذي تعتبر البشرية فيه نفسها قد وصلت إلىٰ أقصى درجات التقدم والرقي القيمي والأخلاقي والإنساني... في هٰذا القرن بكل هٰذه المواصفات وغيرها مما يدور في فلكها تقوم البشرية حكومات وشعوباً بارتكاب مجازر أبشع ممكا كل ما تم ارتكابه عبر تاريخ البشرية.

هنا يبدو المعنى الحقيقي لانهيار إنسانية الإنسان، إذا كانت الإنسانية في أحلك ظروف الجهل والتخلف والظلامية لم تصل بشاعتها وشناعتها في ارتكاب المجازر إلىٰ ما تمارسة البشرية اليوم فهٰذا وحده يكفي للجزم بانهيار الإنسانية وانزلاقها إلىٰ مهاوٍ لا يمكن تصديقها من الانحدار والسفالة والقذارة...

حقيقة لا يجوز تشبيهها بالحيوانية ولا بالوحشية ولا بالبهيمية ولا بالهمجية، بل إنَّهُ لأشد الظلم تشبيه ما هي عليه البشرية بالحيوانات بمختلف

أنواعها لأن الحيوانات بمختلف أنواعها لا يمكن أبداً أبداً أبداً أن تفعل ما يفعله البشر من بشاعات وشناعات في جرائمها ومجازرها ودعم مرتكبي المجازر ومساندتهم، وفي أحسن الأحوال السكوت عليهم بعين الرضا.

الكل شكريك في المجازر مشاركة الفعل المباشر لا محض السكوت، والمشاركة متعددة المستويات والأنواع، ناهيكم عن أنَّ أحداً منهم ليس بريئاً من ارتكاب المجازر مباشرة.

إنَّ ما يجرب في سوريا وحدها، بعيداً عن ما يجري في كل العالم وفي مختلف الميادين، وما يجري مع السوريين وللسوريين في سوريا والعالم يكفي وحده للقول بانهيار إنسانية الإنسان. مررنا ببعض قليل وقليل جدًّا من هٰذه الصورة في هٰذا الكتاب، ونقلنا الكثير في كتبنا الأُخْرَىٰ عن الثورة السورية وما تعلق بها.

إنَّ ما حدث ويحدث في سوريا أمور لا يمكن تصديقها من كل جانب؛ من جانب ما يرتكب من جرائم ومجازر فوق حدود الخيال كلها، ومن تآمر دولي من مختلف دول العالم علىٰ الشعب السوري ومؤازة النظام وأنصاره ومرتزقته فيما يركتبه من جرائم ومجازر وتشريد وتدمير...

الشعوب ليست بمنأى عن المسؤولية، وبكل ثقة أقول لا يحق لأحد في العالم أن يزعم أنَّهُ معذور لأي سبب وخاثة أنَّهُ يجهل ما يدور، ما يدور لا يمكن لأحد زعم أنَّهُ لا يعرفه، لا أحد في العالم لا يعرف أنَّ هناك أزمة سورية هائلة، وأي واحد يعرف كل شيء أو الكثير بل القليل الكافي بمحض دقائق من البحث في أي متصفح إنترنت.

لا أحد يحق له أن يزعم أنَّهُ معذور.

العالم كله ضاج بأزمة اللاجئين السوريين وثارت المظاهرات لاستقبالهم. هل سألوا لماذا يهاجرون؟ هل فكروا لماذا؟ هل بحثوا عن السبب؟

الطريف أنَّهُ بعد ذَلكَ بأسبيع قليلة ضاج العالم ذاته بثورات ضد لجوء السوريين!!

لماذا؟

هل فكروا لماذا؟

المأساة السورية ليست وحدها السبب. بل تكان تكون سبباً واحداً من أسباب كثيرة جدًّا. لن نشير إلىٰ الروهينچيا، ولا إلىٰ العراق، ولا إلىٰ إيران، ولا إلىٰ اليمن، ولا إلىٰ مالي، ولا إلىٰ إفرقيا الوسطى...

الحامل الأساسي لحكمنا بانهيار إنسانية الإنسان هو بنية التفكير الإنساني الأنانية العمياء ولو علىٰ حساب الملايين. وهٰذا ما يمكن التماسه في التجارة والصناعة والبحث العلمي وتطبيقات الاختراعات... بمختلف ميادينها وموضوعاتها، وهٰذا ما يستحق وقفة خاصَّة مستقلة.

سيحدثني كثير عن الاستثناءات.

الاستثناء كما يقولون يؤكد القاعدة لا ينفيها. الاستثناء موجود ولا يمكن إلا أن يكون موجوداً. الاستثناء أو القله هم الشذوذ عن القاعدة. هم موجودون في كل مكان، وفي كل حال.

وعلىٰ أي حال، كل الدلائل ذاهبة إلىٰ حقيقة مرَّة إلىٰ أبعد الحدود وأقصاها؛ إذا استمرت الأمور علىٰ هٰذا النحو، ولا أظنها ستحيد، فإنَّ البشرية ماضية إلىٰ الهلاك، القيم انهارت، والكياني البشري المادي ذاته مهدد بالهلاك الآن، البشرية ستأكل بعضها بعضاً، وستكون حروب غير قابلة للسيطرة... بل

ثَمَّة ما يوحي بإرادة ما تتجه نحو إفناء البشرية أو تحويلها إلىٰ أرقام أو عبيد لفئة قليلة ممن يمتلكون المال والسلطة لتسخير منجزات العلم الأخيرة لتخليدهم أو عيشهم مئات السنين كما يستوحون من نتائج التطورات العلمية. في الوقت الذي يغدو التخلص من مئات الملايين ورُبَّما مليارات البشر ضرورة تقتضيها منتجات الثورة العلمية والتكنولوجية.

المسألة ليست مسألة خيال علمي، المسألة مسألة أبحاث ودراسات وتجارب وأفكار علىٰ أرض الواقع.

مسألة انهيار إنسانية الإنسان ليست مسألة دول أو أنظمة أو حكومات أو مؤسسات فقط، المسألة مسألة أفراد أيضاً، مسألة بنية التفكير الإنساني الفردية.

المسألة ليست مسألة القرن الحادي والعشرين فقط أو القرن الذي سبقه، المسألة مسألة الإنسان منذ وجد الإنسان...

عزت السيد أحمد

٢٠١٥

* * *

صدر من كتب المؤلف

- أعاجيب السياسة الأمريكية؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.

- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخيَّة لا خيار سياسي – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين . . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العرب أعداء أنفسهم؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.

- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأًصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.

- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .

- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.

* * *

الفهرس

الإهداء ٠٠٥
مقدمة الكتاب ٠٠٧
الفصل الأول: المجتمع والمجتمع المدني ٠١١
مقدمة ٠١٣
المجتمع والمجتمع المدني ٠١٤
في خصائص المجتمع المدني ٠١٩
المجتمع المدني والسلطة..... ٠٢٥
. السلطة السياسية..... ٠٢٨
. أنواع أخرى للسلطة ٠٣٢
المجتمع المدني والسلطة السياسية..... ٠٣٥
الفصل الثاني: حقوق الإنسان بين الذرائعية والعدوان ٠٤٣
مقدمة ٠٤٥
العدوان أساساً لحقوق الإنسان..... ٠٤٥
الذرائعية أساساً لحقوق الإنسان..... ٠٥٢
الفصل الثالث: الحرية بين عالمي الحيوان والإنسان ٠٥٩
مقدمة ٠٦١
وضع القدم على الطريق ٠٦١

لحرية الرأي حدود ٠٦٢
الحرية بَيْنَ عالمي الإنسان والحيوان ٠٦٤
لا بديل عن الاستبداد ٠٦٩
مشكلة أكثر البشر ٠٧١
الفصل الرابع: انهيار إنسانية الإنسان ٠٧٣
مقدمة ٠٧٥
لماذا تسد الأبواب أمام السوريين؟..... ٠٧٥
تباً لكم أيها البشر..... ٠٧٨
السوريون يحترقون والعالم يريد تعليمهم الرقص..... ٠٨١
العالم اللاإنساني واللهو بمأساة السوريين..... ٠٨٦
الفصل الخامس: ظلامية الإسلام أم ظلامية الإنسان؟ ٠٩١
مقدمة ٠٩٣
الإرهاب ضد الإسلام هو سلوك حضاري..... ٠٩٤
أقليات حلال وأقليات حرام..... ٠٩٧
إحياء مجازر وإماتة مجازر ٩٩
تمكين المرأة ١٠١
الإسلام والمسلمون وحدهم الظلاميون ١٠٤
خاتمة ١٠٨
الفصل السادس: العدوان علىٰ الذات..... ١٠٩
مقدمة ١١١
الحكام العرب يصححون الإسلام! ١١٢

مصر مع إسرائيل ضد غزة ١١٤
مصر تخلع حجابها ١٢٠
خاتمة ١٢٢
خاتمة الكتاب..... ١٩٧
صدر من كتب المؤلف ٢٠٧
الفهرس..... ٢١٣

العالم العربي
The Arab World
for Publishing

THE CRUMBLE OF HUMAN'S HUMANITY

Ideal And Political Study

BY BROF. Dr.

EZZAT ASSAYED AHMAD

Publisher

The Araboc World for publishing

Amman. 2015

Emil: sameah3@gmail.com

الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار إنسانية الإنسان

قراءة فكرية سياسية

THE CRUMBLE OF HUMAN'S HUMANITY
Ideal and Political Study
By Prof. Dr.
Ezzat Assayed Ahmad

العالم العربي
The Arab World for Publishing

هذا الكتاب

انهيار إنسانية الإنسان عنوان كبير لمضمون خطير يطرحه هذا الكتاب من خلال عدد من الفصول وكثير من الأفكار والأحداث والمقاربات المؤلمة التي يندى لها جبين الإنسانية حقا.

الخطير في الطرح أنَّ فكرة انهيار إنسانية الإنسان ليست مرتبطة بما يزخر به القرن الحادي والعشرين من أحداث وسلوكات فقط، وإنما يمتد ليطال بنية التفكير الإنساني بحد ذاتها الفردية والجمعية معًا. بما يعني أن انهيار إنسانية الإنسان ليس أمرًا جديدًا ولا طارئًا لأسباب عارضة أو طارئة نجمت عما يحدث في السنوات الأخيرة من هذا القرن.

أخطر ما ينجم من نتائج عن هذا الطرح أنه لا يوجد أمل في الإصلاح، وعلى ضوء معطيات الواقع اليوم يبدو كما يختم الكتاب أن البشرية تسير إلى هاوية سحيقة، ودموية تفوق ما تشهدة البشرية اليوم في في بعض المناطق وخاصة سوريا والعراق.

دوامة المجازر الشنيعة التي فاقت كثيرا ما شهده تاريخ البشرية في طريقها إلى التمدد.

الناشر